رواية
البؤساء

(تمثيلية مؤثرة في الأخلاق والعواطف والإحساس)

(ذات فاتحة وأربعة فصول وخاتمة)

(كلها في خمسة عشر منظرا)

تعريب

(عبد الحليم دولار)

(الطبعة الأولى لملتزمها)

منصور عبد العال

صاحب المكتبة المصرية بشارع محمد علي

(تباع في سوق عكاظ بشارع الحلوجي بالأزهر)

(حقوق الطبع والتمثيل محفوظة للمعرب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

﴿ كلمة للمعرب﴾

البؤساء رواية تمثيلية مؤثرة في الأخلاق والعواطف والإحساس ذات فاتحة وأربعة فصول وخاتمة كلها في خمسة عشر منظرا وهي هي تلكم الرواية العظيمة التي وضعها فيكتور هيجو أشعر شعراء الفرنسيس وعربها محمد افندي حافظ إبراهيم أشعر شعراء المصريين ونقلها إلى التمثيل وأبرزها من خدرها إلى عالم الحس والمشاهدة المسيو شارل هيجو ابن المؤلف الشاعر الحكيم وها هي والحمد لله تزف إلى قراء العربية في حالة تمثيلية وسوف تعطي حقها من إتقان التشخيص ولا أخال الأدباء إلا مادين لها يد القبول فما هي إلا عروس من بنات الأفكار وهنا أستميح معذرة ممن تفضلوا على بتقريظها فليس لنشر كل ذلك متسع بيد أني أكتفي بما قال صفوة أصدقائي حضرة الكاتب المتفنن والشاعر البليغ محمد افندي صادق عنبر مدرس اللغة العربية بالمدرسة التحضيرية الكبرى نثر الدر من فيه فقال :

أي در أرى وأي ثمين		في نظام من البيان متين

خلب اللب والمسامع منا وأرانا بلاغة التحسين
ما شهدنا من قبل هذا كتابا لفظه سأل مثل ماء معين
ايه (عبد الحليم) أحسنت الإبـــداع والنقل آية التمكين
حكم صفها وموعظة حتـــى تجلت في لؤلؤ مكنون
قد نسينا عبد الحميد إلى أن جئتنا بالغريب في ذي السنين
أي جفن أعارك السحر حتى جئت بالسحر في كتاب مبين
ومعان كالحمر في كلم كالد ولاحت في خير عقد ثمين
يا أدبيا بنثرة يفخر الطر س وتعتز دولة التبيين
دم لها وأتنا بآخر مما صنعته يا فتى البيان المسكين
وابق للفضل يا فتاة منارا وتقبل ثناء خل أمين
تحريرا بالقاهرة في أول نوفمبر سنة ١٩٠٥

المعرب

عبد الحليم دولار

﴿ أشخاص الرواية ﴾

أبطال الرواية : جان فالجان (مادلين بطرس فوشلفان)

فانتين

كوزيت

الرجال : العابد منتبارناس

جافير كلاكسو

فوشلفان بريجون

الأب سمون ماريوس

كاتب أسرار الحاكم صاحب بيت

رئيس المحكمة صاحب نزل

المحامي العمومي صديق له

شان ماتيو قائد الجيش

كوش باي جندي أول

بروفيه (ثاني)

شاندليو (الطيب الأول)

تيناردية (الثاني)

ثم سجان وصناع وجند وخدم وغيرهم

النساء : مادموازيل بابتستين ماجلوار

الأخت سمبليس أبونين

الأم تيناردية امرأة صالحة

ثم خادمتين

الفاتحة

﴿ المنظر الأول ﴾

(الرجل)

(يرفع الستار عن ممر بمدينة ديني عن يمينه نزل وعن يساره بيت لأحد بني الإنسان وفي ناحية منه سجن هائل ، ويدخل رجل بادن شديد الحول يضرب لونه إلى السمرة وقد أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأرمضه السفر وعليه أثمال بالية طال عليها القدم ، فهي وجود عدم ، وبيده عصي يتوكأ عليها وهو يحمل خرجا مملوءا بحاجة ولباناته) .

الرجل – (عندما يدخل) رباه قد ملكني الجوع ونال مني الظمأ (ينظر حوله) إذا آوى إلى هذا النزل عله يعصمني من شر ما أتقى (يذهب إلى الباب ويطرقه ثم يظهر صاحب النزل وأسمه جاكين)

جاكين – ما سؤال الطارق ؟

الرجل – أكله ونومه .

جاكين – لقد طلبت أمرا يسيرا ليس أسهل منه (يتفرس فيه) ولكن هل تصل يدك إلى دفع ثمن ما تطلب .

الرجل – بلى . معي من الدراهيم ما يعينني على الدفع (يظهر له كيسه)

جاكين – حسن . وهذا جل ما أبتغيه منك (يظهر على عتبة الدار رجل آخر وهو ينادي جاكين)

الخارج – ماذا تصنع هنا يا جاكين ؟

جاكين – أكلم ضيفا آتي .

الخارج – ضيفا (ينظر إلى الرجل بانتباه) إيه يا جاكين . افتح عينيك وتأمل ضيفك مليا فإنه الرجل

جاكين – الرجل ......

الخارج – نعم ... ألم أقل لك منذ ساعة إني كنت في دار الحاكم ورأيته وعرفته ذاك الرجل الذي دب الخوف في أعصاب المدينة من أجله .

الرجل – أما آن وقت إلا كل والراحة ؟

جاكين – أيهذا الرجل .... أعلم إني غير قادر على إجابة طلبك

الرجل – كيف .. أيخالجك الريب في دفع الثمن . أتحسبني عاجزا عنه، ألا خبرني أتريد أن أعجلك بالدفع .. إيه . قل ... فأنا عندي دراهم .

جاكين – وأنا ليس عندي حجرة لك .

الرجل – سيان عندي أن أنام في حجرة أو أن أنزوي في ناحية من المنزل ولكني يكاد يأتي على الجوع .

جاكين – وأني آسف أن أقول لك أنه لا يمكنني رد جوعك عنك

الرجل – ولكني أرجو منك ذلك فقد مشيت من شروق الشمس إلى غروبها وما بلغت هذا المكان حتى أدمي السير قدمي ومن العجز يا سيدي بل من العبث أن أنصرف عنك كاسف البال .

جاكين – وما العمل إذا لم يكن عندي شيئا تأكله .

الرجل – لا شيء عندك (ينظر إلى داخل النزل) وكل هذا الطعام الذي أراه لمن هو إذا .

جاكين – هو للذين سبقوك إلى شراءه . فقد نزل بي قبلك قوم كلهم محتاجين إلى الطعام والراحة فهيا إذن حول دفة مسيرك إلى نزل آخر .

الرجل – كلا لا أبرح هذا المكان إلا بعد أن أسد رقي .

جاكين – هذا محال

الرجل – بل ميسور ... فدعني أدخل (يهم بالدخول فيوقفه جاكين)

جاكين – كفى كفى يا هذا ... فقد أحسنت معك صنعا وكرهت أن أعاملك بالقسوة لما أنت فيه من سوء الحال . ولكنك أبيت الإصرار . فقد تلجئني إلى طردك من نزلي مهانا وأولى لك أن لا تلح في السؤال . فإن أجابتك إليه أمر محال

الرجل – ولكني ...

جاكين – (يقاطعه) قلت لك كفى ... فهيا انصرف عني وحسبك القول دون الفعل .. وإلا .. أتريد أن أخبرك من تكون

الرجل – أهكذا تعاملون البائسين والمساكين

جاكين – يا لك من مخادع .. ألا تنصرف عني .. كفاك زجرا يا جان فالجان (ويدخل هو وصاحبه ويردا وراءهما الباب ويسير جان على يساره)

الرجل – يا للبلاء ... (يذهب يجر ذيل الحسران إلى البيت

الذي هو أمامه) وهذا البيت الذي أشم منه رائحة النعيم (ينظر من شباكه) أني أرى رب البيت جالسا يحادث زوجه ويلاعب أولاده إذن استضيفهم فلعلهم يرئون لحالي (ينقر على الباب مرة ثم أخرى)

صاحب البيت –من هذا .. من الذي أرى ؟

الرجل – غريب يا سيدي يستضيفك وإن شئت يدفع لك ثمن ما يأكل .

صاحب البيت –عجبا . ولم لم تطرق الفنادق إذا كان معك مال كما تزعم .

الرجل –طرقها جمعيها . ولكن يا للأسف لم أجد لي فيها مكانا خاليا .

صاحب البيت –إن كلامك يا هذا شبيه بالباطل أن لم أقل باطل وتلفيق، فإن هذا اليوم ليس من أيام المواسم ولا من أيام الأعياد .. ولكني أراك أتيت أمرا فريا . بل أني أسمع فيك صوتا يقطر منه الدم .. ولا أخالك إلا قاتل سفاك

الرجل – يا سيدي ما أنا إلا ابن سبيل بائس سرت على قدمي اثنى عشر فرسخا حتى أعياني التعب . فيا سيدي ارحمني واسعفني بكسرة من الخبز أو على الأقل شربة من ماءك العذب .

صاحب البيت – بل من ماء جهنم .

الرجل – آه يا سيدي أنسيت أن من يصنع الخير لا يعدم جوائزه.

صاحب البيت – ولكني لم أنس أن القاتل جزاؤه القتل (يصوب نحه بندقية)

الرجل – شربة من الماء . شربة واحدة ليس إلا . آه يا سيدي

صاحب البيت –دونك الرصاص (ينعطف جان ويسير ويقفل الرجل بابه) .

الرجل – دونك الرصاص ... (يسير إلى أن يصل أمام السجن)

هذا هو السجن . أجل والله هو ، وأني أحوج إلى الراحة أكثر مما أنا أحوج إلى الطعام وهذا الجو يهلكني برده ومطره فما ضري لو التجأت إلى السجن فأني لا أعدم أن أجد لي فيه مكانا يعصمني (يطرق باب السجن)

السجان – من الطارق ... في هذا الليل الحالك ؟

الرجل – غريب ليس له مكان يأوى إليه فهل تقبلني عندك يا سيدي السجان بمثابة رجل شقي عاتي ؟

السجان – ومتى سمعت أن السجن أصبح دارا للضيافة ، فإن كنت أمسيت غير قادر على المأوى والمأكل فاذهب إلى الناس واسرق واقتل واقترف الآثام فإنك تأتي إلى السجن مسرعا .

الرجل –(يسير وهو يضحك) ها . ها . ها أي والله انه ينطق بالصواب ، ويا ليت شعري ما الذي يمنعني أن اقترف إثما فظيعا يقودني إلى السجن حيث تربيت وكبرت . فها أنا قد استضفت الناس فطردوني . فقصدت الفنادق فصرفوني فالتجأت إلى السجن فزجروني فما العمل بعد أن ضاع الأمل وخاب الرجاء من هذه الدنيا الفانية (يسقط على الحجارة وينام ثم تخرج امرأة وتمر عليه) .

المرأة – ما خطبك أيهذا النائم ؟

الرجل – أنا أنام أيتها المرأة الصالحة .

المرأة –ولكن اتفترش الصخر ؟

الرجل – مكثت تسعة عشر سنة وأنا لا أفترش إلا الأخشاب فلا تعجبي إذا رأيتني أتوسد الحجارة في هذه الليلة بعد أن ضقت زرعا .

المرأة –أكنت جنديا ؟

الرجل – جنديا ... نعم كنت جنديا .

المرأة –ولماذا لم تطرق الفنادق ؟

الرجل – لأني صفر اليدين .

المرأة –معي أربعة صلديات .

الرجل – أعطينيها (يأخذ منها بلهفة) .

المرأة –لا يمكنك أن تكتري لك مكانا بهذا القليل من المال وأني أرى السماء مكفهرة الجوانب وسوف تمطر مدرارا وليس من الممكن أن تقضي ليلتك في هذه الحال ، فينبغي أن يستضيفوك كرما وإحسانا .

الرجل – طرقت جميع الأبواب فلم أظفر بكريم شكوت له حالي فرث لبلواي .

المرأة –ألا أدلك على بيت نحت صاحبه من الجود وصور من الكرم ؟

الرجل – بلى يا سيدتي دليني على الخير .

المرأة –(تشير إليه) هل طرقت هذا البيت ؟

الرجل – لا

المرأة – اذهب واطرقه (تخرج ويخرج على أثرها حاملا خرجه)

﴿ المنظر الثاني ﴾

(العابد)

(يرفع ستار آخر حجرة في بيت العابد في آخرها باب يوصل إلى الشارع ، وبالحائط دولاب متداخل في الجدار وفي الوسط مائدة ممدودة وعليها مصباح منير ، وبجهة اليسار من المائدة مقعد كبير ومادموازيل بابتستين جالسة بجوار المائدة وما جلوارا الخادمة تحضر العشاء)

بابتستين – أني أكره ياما جلوار أن أعيد القول لأخي مرة ثانية عن هذا الباب الذي لا يقفل أبد الدهر .

ماجلوار – (وهي تجهز العشاء) وأنا أخشى كذلك أن أخوض معه في حديث هذا الباب .

بابتستين – وأن أخي لا يخاف على نفسه ولا يشاء أن نخاف كلتانا عليه وتخذر . فإن كان هذا مراده فواجبنا لا يمنعنا من أن نحتذر فلنفعل هذا بمحض إرادتنا ومن تلقاء أنفسنا ولعمري إنه ينبغي أن نكون صاحبتا حذر مع رجل بلغ منه الصلاح والتقوى مبلغا عظيما بحيث يفتح بابه لكل داخل ، على أنه يا ماجلوار ليس عندنا ما نخشى فقدانه أو نأسف على ضياعه .

ماجلوار – حقا يا سيدتي أن كل شيء قد أخذه منا الفقراء والمساكين ولكن يوجد أيضا عندنا هذه الآنية الفضية وهذان الشمعدانان الثمينان ، ونعم أن هذا البيت لله والرجل الصالح الذي يسكنه محبوب ومقبول الكلمة عند كل من يعرفه حتى من الأشقياء ولكن يا سيدتي الرجل المريب الذي هبط المدينة اليوم قد أجمع الناس على وجوب التحذر منه لأنهم نظروا في وجهه ملامح الفتك والشرور وقالوا أنه لابد من وقوع حادث حلل في هذا الليل الدامس ما دام ذاك الرجل يطوف في الأزقة والطرق متخفيا بظلام الليل الحالك (يدخل العابد ويجلس على المقعد وهو صامت يطالع في كتابه) ويا سيدتي أن هذا الرجل الفتاك يترقب الفرص للوثوب على الناس فيسلبهم أنفسهم ثم متاعهم ومالهم .

بابتستين – هيئي العشاء ياما جلوار « فأن أخي مشي على قدميه

اليوم كثيرا وأخاله منوك القوى .

ماجلوار – أجل يا سيدتي (تقول وهي تهيئه) وقد أشاعوا أنه سيقع الليلة حادث هائل في المدينة ويلزم كل فردان يحكم إقفال بابه . ولكننا يا للأسف لم نفعل وتركنا بابنا مفتوحا لكل طارق .

بابتستين –(تنظر إلى أخيها) أسمعت ما قالته ماجلوار يا أخي ؟

العابد –(مبتسما) بلى يا أختاه .

بابتستين – وماذا تصنعين من أجل ذلك يا ماجلوار ؟

ماجلوار – أني لا آمن ونحن في هذا البيت على هذه الحال أن يثب علينا ذلك الذئب وأنا ذاهبة إلى السوق لشراء ترباس لهذا الباب وداعية أحد النجارين لإصلاح عضادته (تذهب نحو الباب ويطرق في هذه الأصناء ثم يدخل جان فالجان وتفزع ماجلوار فتبتعد) .

جان فالجان – (يقف أمام العابد متوكئا على عصاه) ها أنا ذا أنا أدعي جان فالجان . أنا سجين .

ماجلوار – (تهلع) رباه ....

جان فالجان – خرجت من سجني وتنسمت نسيم الحرية منذ أيام أربعة فأشرفت على تلك المدينة عند غروب الشمس فقصدت الفنادق وطرقت الأبواب فلم أصادف رجلا كريما ، ولا قلبا رحيما ، فمضيت إلى السجن آملا أن آوى إليه لأني أقرب الناس عهدا به فزجرني السجان ونهرني فقلت أنطلق إلى الفضاء فأنام مفترشا الحجارة وملتحفا غياهب الجو ففعلت ذلك وانطرحت على الصخور وصادفت أن مرت على امرأة من الصالحات ولما أن نفضت لها جملة الحال أرشدتني إلى ذي الدار، وها أنا ذا دخلها ، فما تكون يا ترى هذه الدار أفندق هي فإني

قادر على دفع ثمن ما أطلب ولا يمكنني الخروج منها بعد أن دخلتها على هذه الحال فإن السماء تمطر في الخارج والبرد باسط بساطة وأنا منهوك القوى واهي العزيمة أكاد أموت جوعا ، وأقضي عطشا . فهل تطردني أيضا أنت (يقول آخريات ما قاله بضعف متتابع)

العابد – إيه يا ماجلوار هيئي لضيفنا مكانا على المائدة .

جان فالجان – (يخرج الورقة الصفراء التي هي معه) دونك الورقة الصفراء التي تحول بيني وبين الدخول في الفنادق والتي تحذر الناس مني وتمنعهم أن يكرموا مثواي والتي ما صحبتني إلى مكان إلا وسبقني النحس والبلاء إليه ... دونك إياها فأنا أتلو عليك ما سطروا عني فيها فقد تعلمت القراءة في مدرسة السجون (يقرأ) تولون في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨١٥ أن جان فالجان مجرم مكث في السجن تسعة عشر سنة لبث خمسة منها اقتصاصا منه على السرقة وقضي الباقي جزاءا معالجته الفرار مرارا وهو سفاك فتاك وجسور « أجل ففي أعماق السجون تشرب قلبي من الشرور ثم إن قوتي هائلة وكلي يا سيدي مخيف مرعب فلذلك تجدني ما حللت بمكان إلا وخشي من فيه على نفسه مني ... وأنت أنت يا هذا الكريم ما عساني وأجدك .. أتقبلني في بيتك أم باليت شعري تصرفني عنك كما صرفوني . أم أنت من المحسنين . سيدي لا أطلب كثيرا ، فأبعني قطعة من الخبز ودعني آكلها في ناحية من تلك الغرف .

العابد – يا سيد فالجان إن العشاء متهيىء فتفضل ... وأنت يا أختاه تفضلي .

جان فالجان –أصحيح ما أرى وما أسمع . أحقا يا سيدي ما تقول

.... يا للعجب نعم صحيح فها المائدة وها الطعام ... فيا سيدي أنت تقبلني عندك وتجلسني على زمم منك وتدعوني سيدا آه يا للعجب العجاب ... كم سمعت من أفواه الناس كلمات سبابا وجهوا بها إلي وإنك لتعاف أنت أن تذكرها للكلاب .

العابد – سراجنا ضئيل النور يا ماجلوار فأتينا بالشمعدانين (تخرجهما الخادم وتضعهما على المائدة وتنيرهما)

جان فالجان – (يأكل بشراهة) ما أكرمك أيها الرجل الصالح فشكرا لك بل ألف شكر ، فإنني قد كنت أحسبك تردني كاسف البال كما فعل بي أصحاب الفنادق فإذا أنت تجلس معي على بساط المساواة بعد أن عرفت أمري وجليلة حالي ، وإني بالحقيقة لم أخف عند منه شيئا ولم أكتمك أسمي أو أخبأه عنك .

العابد – يا جان أن من يدخل بابنا لا يسأل عن أسمه ولقبه إنما يسأل عن أله ومصابه وأنت رجل قد أضر بك الجوع والظمأ فالتجأت إلى هذه الدار وليس في ذلك فضل أو إحسان وإنما الفضل كل الفضل لله ، ثم لتعلم أنك هنا في منزلك بل أكثر مني فيه وكل ما يحتويه هو ملك لك تتصرف فيه كيفما تشاء وتذهب فيه إلى حينما تريد أما أسمك فإني لم أكن في احتياج إلى معرفته منك لأني كنت أعرفه قبل أن تدخل إلى هنا .

جان فالجان – أكنت تعرف أسمي ؟

العابد – أجل أفلست تدعى بأخي .

جان فالجان –ما أرق شمائلك يا سيدي الصالح ، ألا تخبرني ماذا صنعت حتى صرت على هذا الصلاح والتقى ، فقد بلغ من مجاملتك

لي أني كنت جائعا عندما دخلت إلى هنا ما عتمت أن شبعت وارتويت حينما سمعت كلامك العذب فآه ثم آه بالله أني نسيت ما كنت أشعر به من الضعف والألم .

العابد – (يقدم له نبيذا) اشرب يا سيد فالجان من هذا النبيذ المعتق واعذرني أنا وأختي من تعاطيه إذ ليس من عادتنا شربه إنما نحضره للقادمين . تفضل

جان فالجان (بعد أن يشرب) آه الآن أشعر ببعض الكلال وأحتاج للراحة فهل يوجد في ناحية من فناء هذا البيت جحر أنزوي فيه أو وجار لكليكم أو هل لكم اصطبل خيل أقضي فيه ليلتي يا سيدي)

العابد – هيئي لضيفنا سريرا وفراشا لينا وغطاء يا ماجلوار (تخرج ما جلوار)

جان فالجان – أسرير لي أنا « وفراش لين وغطاء مثل جميع الناس ولم تطأها جبناي من تسعة عشر سنة ولقد ظننت أني لا أرى منك إلا ما رأيته من أصحاب الفنادق فما بالك تبالغ في محاسنتي كأنني بعض بني الإنسان وما اسم هذا النزل يا ترى وكم ينبغي أن أدفع .

العابد – إن هذا البيت ليس بنزل كما تظن ولكنه بيتي أنا بل بيتك أنت يا أخي جان .

جان فالجان – لقد خيم الحزن على بصري حتى ضعف ولم أرى ملابسك التي أنت مرتد بها فأنت إذن عابد تلك المدينة فلا تؤاخذني بما نسيت ، ولا أظنك تكلفني بثمن ما أكلت

العابد – لا بل فاحفظ معك نقودك فإنها تنفعك أما أنا فلست في حاجة إليها (بعد قليل) إن أثار الألم بادية على محياك البئيس يا جان

فأنت تألمت كثيرا ؟

جان فالجان –آه بلى تألمت كثيرا يا سيدي (بشدة) تألمت كثيرا كثيرا ما تألمت . أوأه نعم تألمت ولكن لماذا ... لأني سرقت ، ولما سرقت لأني كنت أشتغل بقوة وعناء من أجل أختي الأرملة وأطفالها السبعة ، وإني وحدي كنت أعمل لبطونهم جميعا حتى يوم من أيام الشتاء يوم يا له من يوم ، يوم حبسني يا سيدي برده القارس ومطره المنهمل وهياج الطبيعة بأجمعها فيه عن الخروج من منزلي في طلب وجوه الرزق ، ولم يكن عندنا في هذا اليوم التعيس ولا كسرة خبز صغيرة . وهؤلاء الأطفال السبعة يصيحون ويبكون ويتأوهون من ألم الجوع، وكان منظرهم يقطع نياط قلب الدم والدتهم المسكينة ، وقلبي أنا أيضا .. ولما يئسنا جميعا وكدنا نقطع الأمل من الحياة أقبلت إلى أختي المسكينة ودموعها تترقرق في عينيها وقالت لي بصوت ينفطر من أجله كل قلب قالت لي جان يا أخي ؟ اذهب رغم هذا الهياج وهذا المطر وهذا البرد. واسأل الإحسان والمعونة فخرجت هائما على وجهي ، وأنا من شدة الفرد أفر وأكر رغم أنفي فإذا أنا واقف أمام حانوت خباز وهو مغلق وصاحبه يتهيأ للنوم وكان باب الحانوت من زجاج فنظرت من خلاله فإذا بأرغفة الخبز على قيد ذراع مني ، ثم تخيل أمام الصبيان وهم يصيحون وأمهم تعللهم ، فساقني الاضطرار إلى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن أنتزع هؤلاء الأطفال وأمهم من مخالب الجوع ، فضربت الزجاج بيدي وقبضت على رغيف من تلك الأرغفة.

العابد – يا للقساوة أمن أجل رغيف واحد سجنت ؟

جان فالجان –أي والله من أجل رغيف واحد من أجل رغيف واحد تكبدت العشاء والبلاء والله شاهد ، من أجل رغيف واحد تكدبت العناء والبلاء والله شاهد ، من أجل رغيف واحد أصبحت سجينا أجر في السلاسل والأغلال وأفترش الأخشاب متحملا قيظ الصيف الشديد وبرد الشتاء القارس ، وكم قرعت بالعصا ونهرت نهر الكلاب ، فواضيعتاه إن الكلاب لأسعد حظا مني فإنها تسرق بلا حساب ، أما هؤلاء الأطفال وأمهم فلا علم لي بما نالهم لأني فصلت عنهم ولم أعد اسمع من خبرهم شيئا فانظر يا سيدي إلى أحوالي هذا الدهر المعادي .

العابد – أنت خارج من أماكن الهم وستصبح في معتزل عنها وتدخل أماكن لا يلحقك فيها إلا النعيم وإنه ليوجد في السماء من يرحمك ويغفر لك ما تقدم وما تأخر من ذنبك (يقومون جميعا وتهتم ما جلوار برفع الطعام ووضع الآنية الفضية في الدولاب كل هذا وجان فالجان ينظر إلى صنعها) هيا . هيا قد دنا موعد الراحة .

بابتستين – أسعدت مساء يا أخي (تخرج وعلى أثرها ماجلوار)

العابد – أسعدت مساء يا أختاه وأنت أيضا يا سيد فالجان أسعدت مساء وفي الصباح قبل أن تغادرنا تتناول جرة من لبن بقرتنا اللذيذ ... (يفهمه) هذا مهجعي وهذا مهجعك

جان فالجان – أشكرك يا سيدي العابد وأسعدت مساء (يمشي خطوتين ثم يرجع) ولكن أهكذا تجعلني أيام قريبا منك بحيث لا يحول بيني وبين الفتك بك حائل وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء .. ومن ذا الذي يقول لك إني لم أقتل

العابد – إني لم أوجه إليك السؤال

جان فالجان – من ذا الذي يخبرك بأني لم أقتل ؟ فأنت يا سيدي ممن تتوسم فيه مخائل التقى ويقرأ في أسرته عنوان الصلاح ويقطر من شمائله ماء الكرم قد خلقك الله لتكون ملجأ للتعيس وموئلا للبئيس أما أنا قد تبرأت مني المروءة حيث قد غنيت اللؤم في اللبن فهو حشو جلدي بل وملء ثيابي أفبعد هذا لا تكونن مني على حذر ، وأني لأعيد على مسامعك مرة أخرى ما ذيلوه عني في تلك الورقة الصفراء أن جان فالجان لفتاك جسور ، فاعلم أني رجل مريب بل أنا لست برجل إنما أنا نوع من الوحوش الضارية الكاسرة وكنت مقيدا بالسلاسل والأغلال وأصبحت مطلق السراح وها أنا ذا أترقب الصيد فافعل أنت ما شئت ولكني أقول لك انتبه على نفسك وتيقظ عليها مني

العابد – لا ينفعني الحذر شيئا (جان يلتفت ويأتي بحركة عجيبة ويخرج) (يتجه العابد نحو مخدعه لينام ولا أن يصير أمام المقعد يجلس) أصحيح ، أحقيقي ، أممكن أن يكون صحيحا ما يقوله هذا الرجل المسكين البائس ، أيمكن أن لا يكون إنسانا بشريا ، أواه لا لا فهل لبني البشر من سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التي جبلت عليها فيرد منها إلى الخبائة ما فطر منها على الطيبة ، وهل يخضع القلب لسلطان الفساد وهلا يوجد في نفوس البشر نور سماوي لا يذهب بسناه الشك ولا تطمسه الضلالة... لا لا ، لا يمكن فقط يوجد في هذه الدنيا السعداء ويوجد أيضا البؤساء ، فآه من البؤس كم كرهه ، وكم أتمنى أن أقدر على محوه من هذا العالم ... ويا حبذا لو أستطيع إلى ذلك سبيلا (ينظر في كتابه بسكينة ثم يستغرق في النوم تدريجيا) .

جان فالجان – (يدفع باب حجرته بعنف ويظهر على المرسخ ويخطو عليه إلى أن يصير أمام الدولاب وعيناه تتجه نحوه) يوجد هنا بلا ريب ما يعادل ثمنه فوق المائتين فرنك (يذهب على أطراف أصابعه ليتسمع وليتحقق أن الكل نيام يذهب أولا من جهة اليسار ثم ينعكف إلى اليمين فيرى العابد نائما على المقعد فيوميء إليه بعصاه ثم يقف مذهولا برهة ثم يضع يديه على جبينه ويتأوه ويرجع إلى الباب المؤدي إلى الطريق يريد الخروج ثم يرجع ثانيا ويقف أمام الدولاب) مائتين فرنك . مائتين فرنك اكتسبها في لمح البصر ويا لعمري أي شيء يحول بيني وبين الحصول عليها (يتقدم وبعد قليل تظهر ماجلوار وهي مسرعة إلى الدولاب)

ماجلوار – (تدخل وهي مرعوبة) واحسرتاه الآنية الفضية .

العابد – (يقوم مذعورا) ماذا دهاك يا ماجلوار ؟

ماجلوار – (تذهب إلى حجرة جان فالجان فلا تراه فيها) آنية الفضية يا سيدي / مضى الرجل وأخذها معه فآه يا سيدي لا بورد له فيها .

العابد – هدئي روعك يا ماجلوار ، ألم أقل لهذا المسكين أن كل ما في البيت ملك له فيتصرف فيه كيفما يشاء ويذهب به إلى حينما يريد فلا تزعجي يا ماجلوار فنحن لم نكن أصحابا لتلك الآنية إنما هي للفقراء والبائسين وقد حجزناها عنهم ولقد أحسن الرجل صنعا في أخذها فيما هو إلا أحد هؤلاء المساكين وهي من نصيبه فبورلك له فيها بم دونك

آنية القصدير فاستعمليها بدلا عنها فإنها تكفينا وتبعد عنا الأسف على ضياع الآنية الفضية (تظهر مادموازيل بابتستين) أليس كذلك يا أختاه ؟ (ثم يطرق الباب ويدخل اثنان من الجند قابضان على جان فالجان وهو بينهما ذاهل باهت)

الجندي – (مسلما) مولاي

العابد – هذا أنت إني فرح علم الله بمرآك ولكن لماذا يا أخي نست عند انصرافك عنا أن تضيف هذين الشمعدانين إلى تلك الآنية الفضية وأنت تعرف أنك صاحبهما من الأمس ، فلربما أنساك شيطان العجلة من أن تذكرها

الجندي – مولاي أحقا ما تقول ، أنا رأيناه يسير كمن يحاول الهرب ووجدنا معه هذه الآنية .

العابد – لقد أسأتما الظن بضيفي فإنه بعيد عما تظنان

الجندي – إذا كان هذا فإنه حر منذ الساعة

العابد – هذا مما لا ريب فيه (ينظر إلى الجندي الآخر) وأنت ما خطبك ؟

الآخر – قد أتى يا مولاي إلى دار الحاكم منذ ساعة غلام يبلغ من العرم اثنى عشر سنة يتظلم ويتوجع من رحل صادفه بالخلاء سرق منه قطعة من الفضة تعادل أربعين صلدبا .

العابد – وكيف ساغ لك أن تتهم ضيفي بسرقتها ؟

الجندي – أنهم سوف يسألونه في دار الحاكم

العابد – كلا فهذا يستحيل وقوعه ، فإنه قد كان عندي من ساعة فكيف سرق وكيف قابل الغلام ؟

الجندي –إذا كان مولاي يشاء أن يطلق سراحه فليكن

جان فالجان – أحقيقي أنهم يتركونني ؟

الجندي – أي نعم ، فهلا تسمع (يحاول جان فالجان الخروج فيوقفه العابد)

العابد – أيه يا أخي ، قبل أن تذهب وتغادرنا مشيعا بسلامة الله خذ شمعدانيك (يعطيه الشمعدانين ويشير إلى الجنديين) الآن يمكنكما الانصراف (يخرجان بعد أن يسلما ويشاور العابد إلى أخته والخادم بالخروج) سمعا سمعا إلى باجان واحفظ كلماتي على صفحات قلبك لا تنسى أبدا أنك وعدتني أن تصرف هذه الآنية الفضية لتصير رجلا شريفا عاليا .

جان فالجان – وعدك أنا .... ؟

العابد – ياجان فالجان يا أخي ، أنت الآن لا تعد من المجرمين المفسدين بل تعد من الصالحين وأني اشتريت نفسك بعد أن أنقذتها من يد الهلاك ثم وهبها الله فلا تكن عليها من المسرفين .

الفصل الأول

فانتين

﴿ المنظر الأول ﴾

(أمين)

(يرفع الستار عن ممر عمومي بمدينة منتفر مي عن اليمين منه باب نزل تينارديه الأم تينارديه جالسة على كثب من ارجوحة ابنتها وهي تتغنى بأنشودة قروية ثم تدخل فانتين وبين زراعيها ابنتها مستغرقة في نومها الهادئ)

الأم تيناردیه — (تنشد مع إظهارها الحنان والعطف لوالدها)

بقيت لي يا ابنتي * يا زهرة الروضة
فأنت لي نعمة * من عند ذي القدرة
وأنت لي في الصبا * وبعده سلوتي
يا رب هيء لها * طرائق النعمة
وكن لها حارسا * في هذه العيشة

فانتين — حنانيك يا سيدتي ، أليس هذا الطريق هو الموصل إلى فوجور ؟

الأم تيناردييه – بلى ، هو ذاك

فانتين–وهل تبعد كثيرا عن هنا فوجور ؟

الأم تيناردييه –هي على مسيرة ساعة للمجد ، وإني لأرى آثار الكلال بادية على محياك ، فهل لك أن تستريحي قليلا

فانتين–وعلام الرفض وقد أنصب بدني السفر ، وكدني الهم والضير (تجلس)

الأم تيناردييه – وهل أتيت من مكان قاص أيها السيدة ؟

فانتين–من باريس ، تلك المدينة الهائلة عروس البلدان كما يزعمون

الأم تيناردييه – إذا كان القدوم من باريس فهذا لعمري سفر طويل

فانتين–نعم فقد تكبدت كثير من العناء حتى وصلت إلى هذا المكان (تنظر إلى الأرجوحة) لعلك أم هذه الزهرة ؟

الأم تيناردييه – وأي اسم اخترته لطفلتك ؟

فانتين–كوزيت ، وقد بلغت من العمر ثمانية عشر بيعا .

الأم تيناردييه – إنها إذا من عمر ابنتي إبونين ، ولكن يا سيدتي إلى أين تتجهين وأي بلد تلقين فيها عصى التيسار ؟

فانتين–أني أقصد بدلي ومسقط رأسي مونتراي سيرمير تلك المدينة التي نشأت على أديمها وربيت تحت سمائها وغذيت بهوائها النقي ، ولقد بعدت عنها ولبثت في باريس شهورا طوالا لكني ما رأيت أطيب من بلدي ولا أهنا من المقام بها ، وها أنا ذا أعود إليها لأكسب هناك من عمل يدي ما يكفل رزقي

الأم تينارديه – تكتسبين من عمل يديك ، وأبو هذه الطفلة ألا يكون هناك بانتظارك ؟

فانتين – الأب .... ؟

الأم تينارديه – نعم ، زوجك

الأم تينارديه – أنت تحدثيني عن زوجي (تحني رأسها خزيا)

الأم تينارديه – آه ، فهمت فهمت أيتها الأم التعيسة الحظ وأنها لعمري قصة يتبادلها اللسان من آن لآن تسفر عن نتيجة واحدة ومغزى واحد وهمو همو دائما هؤلاء الشبان الأنذال ذوو الأغراض السافلة والمقاصد الذميمة فهذا يظهر لك ميله والعاطفة ، وذلك عشقه وغرامه وذلك يعدك بقريب افترائه ، ثم هذا وذاك يتركك مع طفل أو طفلين تتكبدين من أجلهما الشقاء والبلاء عرضه لسهام النوائب والمصائب

فانتين – وهكذا يا سيدتي كنت مع ابنتي كوزيت ، فكم تكبدت من عناء في أشهر الحمل وأشهر الرضاع ، وكم أتعبني ، وكم أزعجني وك أذتني (تكح) وكم سهرت عليها وهي غافلة حتى نزل بصدري نازل السعال الذي كاد يقضي على فريسة له (تكح)

الأم تينارديه – وياليت شعري ، كيف تقدرين على العمل مع هذا الضعف وهذا الفتور .

فانتين – لي همة تقعد دونها الأهوال على أني سمعت أن في منتاري سيرمير يمكن للمرأة أن تكتب ثلاثية صلديا في اليوم الواحدة ، فقد نزل بالمدينة رجل بدعوة بالمدينة رجل يدعونه بالسيد مادلين أودجد فيها منذ أربع أو خمس سنين مصنعا عظيما كان فيه في البدالية خمسون صانعا فأصبح اليوم وهو لا يقل عن الألف ، وكم أتى بأعمال نافعة وصالحة عادت

كلها بالفائدة الجمة على تلك المدينة حتى أقامة أهلها حاكما عليها . وانا ذاهبة اليه ولسوف انتظم في سلك صالعاته

الأم تينارديه —وهل تتأكدين ذلك ؟

فانتين – ولم لا أتأكد . فهل تزعمين اني لا أجد لي هناك محلا ؟

الأم تيناردية – وأنت هكذا أم ..؟

فانتين – من أجل أبنتي . أو ليس هذا ماترمين اليه . . آه نعم هذا ما كان يدور بخلدي قبل أن تخبرين به .. فهذه ابنتي كوزيت بل ملاكي وحياتي بوجهها الصبوح وانفها الجميل وعينها والدعجاوتين وفمها المليح وقدها الرشيق وتبسمها الرقيق . ومنظرها الانيق كلها مع براءتها لاتخرج عن كونها خزي وعاري ... ولكن ليس لي سواها في هذه الدنيا فأني لا أعرف البتة من أمت اليه بحبل القرابة ولن أقوى على فراقها ولا غرو فأنت أم وتحبين ابنتك كما أحب أنا ابنتي واعبدها فخبريني هل تقوين على تحمل فراق ابنتك ؟

ألام تينارديه – ولكن في موقفك الحرج . يجب عليك أخفاء هفوتك وزلتك لكي تكسي من عمل يديك وتعيشي مكفية المؤونة والكساء . وفي هذه الحالة تضمين ابنتك في مكان مؤمن عند أناس صالحين وتدفعين لهم ما يقدرونه لك وتقدرين أنت علي دفعه وأنهم ليصونونا وينسون بها كل الاعتناء

فانتين—هل تتأكدين . هل تتيقنين أنهم يعنون بابنتي ؟

الأم تينارديه – ولم لا أتأكد وأتيقن ؟ ولا فما ابنتك الأثمرة الأثم والخزي* وتصوري أيتها الأم التعيسة ماتتكبدينه من العناء والويل

فاتين —اواه . كوزيت ابنتي . لا لا . لاأتركها تخرج من بين

ذراعي أبدا أبدا

الأم تيناردیه – (تحرك كتفها علامة الأزدراء) فلتصحيها إذا

فانتين–ويحهم ألا يقبلونني صالعة في بلدي ، ألا أجد لي مكانا فيها وما هي ألا عشي الذي منه خرجت ووكري الذي فيه درجت ويا لعمري كيف يتأخرون عن قبولي وأنا لا أشتغل إلا من أجل ابنتي لا لا ، ينبغي أن أجد شغلا ولو شاقا من أجلك يا كوزيت

الأم تيناردیه– ألا أيها السيدة الصغيرة ، اتبعي مشورتي وصدقي ما أقول فأنا الأم تيناردیه حلبت الدهر شطره وشربت أفاويقه وعرفت حلوه من مره وأشير عليك بأن لا تصحبين ابنتك

فانتين–كفى كفى يا سيدتي لا تسمعيني هذا الكلام القاسي فأني إذا أصغيت إليك لا لا (تأخذ متاعها وتسير بعض خطوات) الوداع يا سيدتي الوداع

الأم تيناردیه – (تنظر إلى ابنتها بالأرجوحة وتكون فانتين مصغية إليها من بعيد) يا لسعادة حظك يا ابنتي يا ريحانتي ، فلن تكوني أنت أبدا تلك الفتاة التي تموت جوعا .

فانتين – آه يا رباه يا رباه إذا لتغادرني كوزيت مهجتي ولكن ليت شعري لمن أتركها لمن أأتمنها لمن . لمن . يا رباه (تسكت وترى الأم تيناردیه تداعب ابنتها وقد برعت في حركاتها بالحنان والشفقة) سيدتي . أسمعي لكلامي ورقي لحالي فأنت أم . نعم أنت أم ذات حنان ورقة وأن ألحاجة لتدعوني إلى الالتجاء اليك . فاذا كان

يستحيل على أن أجمع بين السعي وراء العمل وبين أصطحاب ابنتي فانا ذاهبة وتاركة كوزيت روحي وحياتي بين ذراعي أمها الجديدة وباعثة لك بما يقوم بنفقتها فانظري بحنان ماذا تأمرين

الأم تينارديه – سأرى ذلك . فخففي عنك واجلسي

فانتينأني لا امكث زمنا طويلا حتى أعود اليك . ولسوف أكتسب مبلغا هناك ليس بالقليل على أني متى حصلت على أي مبلغ أدفع به اليك وأقوم أيضا بدفع كل ما تأمرين به . فهيا طمئنيني أجيبي طلبتي أجل أجيبي طلبتي فاني رأيتك أما ذات حنان و إشفاق

الأم تيناردية – ستلعب اذا مع ابنتي إبونين وتمرح معها وتصير أختالها ولقد فرشت لها الحنوو العطف في صدري فقري عينا . وطيبي نفسا وليهدأ بالك واعلمي أن ابنتك ستكون دائما كلنها بين ذراعي أمها الشقيقة

فانتين – وكم يا ترى يجب أن أدفع ؟

(يسمع صوت تيناردیه صاحب النزل من الداخل كالرعد)

الصوت – تدفعين سبعة فرنكات وقد استحال غير ذلك ولا تقبل الكفالة إلا إذا عجلت بدفع نفقة ستة أشهر

الأم تيناردیه – ستة في سبعة ، أن قيمة ذلك تعادل اثنين وأربعين فنركا

فانتين – فليكن

الصوت – وتدفعين خمسة عشر فرنكا غير ما ذكرت رسما للكفالة .

الأم تيناردیه – اثنان وأربعون فرنكا نضيف عليها خمسة عشر فرنكا هذا يساوي .. سبعة وخمسين فرنكا ، تدفعينها عاجلا

فانتين – (تخرج من كيسها النقود) سأدفعها عن آخرها فأن معي ثمانين فرنكا ، فيبقى عندي مال يكفل رجوعي إلى بلدي ، راكبة لعلي

الصوت – ويجب أن تتركي عند ابنتك من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر

الأم تينارديه – أنه صوت زوجي وهو رب النزل وصاحب الأمر والنهي فيه فلا تخلفي له أمرا

فانتين – قد أخذت يا سيدتي النقود وها دونك ثيابها ومتاعها بل كنزها الصغير فخذيه (تفتح لها خرجها) خذي ها هو ذا ثوب من الحرير وآخر من المحمل وهذه هي ملابسها الأطلسية وها وها جميع ثيابها التي خطتها بيدي وكثت مدة الحمل أطرزها وأحليها ببهيج الألوان وثمن القماش

الأم تيناردیه – حسن كلها تكفيها (تمد لها يدها لأخذها ابنتها) والآن اعطني كوزيت الجملية

فانتين – (تتوقف) أواه كوزيت ، ولكن خذيها . ها هي ريحانتي، ها هي روحي أضعها بين يديك ، فيا سيدتي بل يا أمها الشفوقة اسهري على صحتها. وحاذري على سلامتها ، (بعد قليل) ثم دعيني أضمها إلى صدري . (تقبلها وتضمنها) ستحافظين عليها وستحميها وتردين عنها كل أذى وتحنين عليها تحننا وتشفقين عليها إشفاقا أليس كذلك ؟ فأنت أم طيبة شفوقة تظهرين الحنان للأطفال والصغار ، فها هي كوزيت ابنتي فازرعي لها في فؤادك جنة من الحنان ورويها بعواطف الحب ، حتى يعشب قلبك حبها، وإني لأراك سوف تفعلين ، فالوداع الواداع يا كوزيت يا روحي ويا أنسي ويا نعيمي الوداع الوداع يا ابنتي

العزيزة . الوداع

الأم تيناردييه – أما كفاك وداعا هذا التشييع

فانتين – نعم ويجب أن أغادرك ، سأسافر قريرة العين ، هادئة البال مطمئنة النفس ، لأن كوزيت بين ذراعي أمها العطوف فاعتني بها يا سيدتي وعاملها بمثل ما تعامليه به ابنتك الوداع إذا سأمضي ولكن دعيني أقبلها وأضمها إلى صدري مرة أخرى (تقبلها) الوداع الوداع (تسير بعض خطوات ثم تعود) اسمحي لي يا سيدتي أن آخذها بين ذراعي وأحملها قليلا (تفعل ذلك) ابنتي . ابنتي . كوزيت (تأخذها الأم تيناردييه) نعم خذي كوزيت فأنت أمها منذ الآن (تنعطف) آه يا كوزيت الوداع . الوداع . (تخرج كالمجنونة وهي ضاحكة) ها . ها . ها . ها (تخرج فانتين وتضع الأم تيناردييه كوزيت في الأرجوحة بجوار ابنتها بكل قساوة وخشونة ويظهر تيناردييه وهو يعدو)

تيناردييه – أين المال . أين المال (يأخذه منها ويعده بفظاظة) وهذا الذي تركته عند ابنها (ينظر في الثياب) إن لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كواهلنا من الديون ، فاجمعي تلك الثياب وعجلي بيعها ، فإن غدا لموعد المقاضاة وليس في أيدينا ما نسد به مطالب هؤلاء الغرماء القساة ، هيا أيتها المرأة هيا أسرعي . اذهبي إلى السوق وبيعيها ، وسيان عندنا تموت، من البرد أو الحر هذه البنت هيا هيا اذهبي

﴿ المنظر الثاني ﴾

(جافير)

(يرفع الستار عن مكتب المسيو مادلين بمدينة منتراي سيرمير كاتب الأسرار جالس على منضدة يكتب . فانتين وفوشلفان جالسان على ناحية ينتظران أن أشغالهما . الأب سيمون هو وحملة من الصناع واقفون وحين يرفع الستار يدخل المسيو مادلين فيرفع الأب سيمون وبقية الصناع قبعاتهم)

الصناع – فليعش سيدنا الحاكم . فليعش سيدنا مادلين

مادلين – ماذا جرى . ماذا تطلبون يا أولادي ؟

الأب سيمون – يا سيدي الحاكم . يا أيها الرجل العظيم . اليوم يوم الاحتفال البهيج الذي يقيمونه عمال مصنعك الكبير الذين يفوتون الألف عدا غير النساء والصغار . فيا سيدي مادلين أتينا نرجو منك أن تحضر بنفسك هذا الاحتفال وتضع بيدك الكريمتين باقة الزهور البهية الألوان على تلك المائدة الفاخرة التي أقمناها لك اليوم كما فعلنا ذلك منذ ثلاثة أعوام مضت . فإن في حضورك تلك الحفلة ما يجلب لنا السعادة والهناء . لأنك أسعدت كل إنسان في هذه المدينة وأنت وحدك يا سيدي الحاكم الذي جعلت مدينتنا منتراي سيرمير تتوقل إلى العلا وتصعد إلى فروع العز منذ ثمان سنين ولا غرو فقد أربيت على الأفكاء وتميزت عن النظراء وأصبحت منقطع النظير والقين بفكرك النير واختراعاتك العديدة وأعمالك العظيمة التي تخشع أمامها العيون وتتصاغر عندها الهمم . ويخفض لها جناح الضعة ولا أخال

أن عينا تفتح على مثلك ما فتى الليل ليلا والنهار نهارا . ولقد أقمت في مدينتنا مصنعك العظيم . وشدت بها ملجأ الأيتام والمساكين . ومدرسة البنات والبنين. ودار المرضى والمسنين حتى عظم قدرك في نفوسنا . وارتفعت منزلتك في عيوننا ووقرت مهامتك في صدورنا . فأنت أنت سعادتنا . أنت سرورنا . أنت مثلنا الذي نحتذ به . أنت محبتنا وأنه ليجب على يا سيدي مادلين أن أكون عالما بأنواع الكلام خطبيا مصقعا ذرب اللسان سبط البيان سمح البديهة لأعرف كيف أعرب لك بأفصح لسان وأبلغ تبيان . أننا جميعا نحبك ونعظمك

الصناع – فليعش سيدنا مادلين . فليعش سيدنا الحاكم

مادلين – أنتم يا إخواني ويا أولادي . وأنت يا أبي سيمون أني لأشكركم جميعا شكرا جزيلا وأعدكم وعد حر بأني سأحضر احتفالكم الزاهر لأضع بيدي باقة الزهور التي أعددتموها في وليمتكم . وسأكون في وسطكم كأحدكم وآكل معكم بكل ارتياح وسرور

صانع – سيدي الحاكم . عفوك . كلمة أريد أن اقولها لشخصك الكريم فأعرني منك أذنا واعية

مادلين – تكلم بحرية تامة

الصانع – حجبني المرضى زمنا عن أعين الناس فخرجت في هذا الصباح حينما دبت في روح النقاهة وقد تركت البيت خاليا لأن امرأتي سبقتني بالخروج وقد جاء رجل وعالج الباب حتى فتحه ثم دخل متلصصا يريد أن يسلبني بعض ما أملكه فلم يجد شيئا ثمينا فتحول عنه لسلب بيت آخر – من يعرف – ولكن أراد الله أن ينسيه خمس قطع من

الذهب تحت وسادتي

مادلين – كن براحة فسوف أعرف لك غريمك

الصانع – كلا يا مولاي قد عرفته أنا . نعم عرفته يا مولاي فهو أنت. أنت الذي علمت بحالي وما أنا فيه من الضنك فأتيت متخفيا وتركت ما تركت .

الصناع – فليعش سيدنا مادلين . فليحيى سيدنا الحاكم (يخرج مادلين والصناع على أثره ويجلس كاتب الأسرار)

الكاتب – ما أكثر حبهم لسيدي الحاكم . ولعر الحق إنه خليق بأن يكون محبوبا عند جميع الناس

فوشلفان – ما عداي

فانتين – وأنا أيضا فأني كنت عاملة بمصنعه وكنت أشتغل بشرف وهمة ونشاط لكنه صرفني بلا رحمة ولا حنان ، فهل أجد بعد ذلك سبيلا إلى محبته .

الكاتب – لقد جازيته لعمري جزءا سمار . فما من شخص صرفك عن هذا المصنع وأنت امرأة إلا مادام فكتريان . لأن المسيو مادلين لا يتداخل في أعمال مصنع النساء . وأما أنت يا فوشلفان لماذا تبالغ في كراهية المسيو مادلين ؟

فوشلفان – أني لا أنكر أنه رجل عظيم قد اعتنى بالمدينة وأينع في التجارة، لكنه أفقرني أنا من حيث أحسن لغيري . فإنه أبطل صناعتي بمخترعاته العجيبة التي أصبحت موضوع فخر يترنم بها كل لسان نعم أفقرني أنا حتى أصبحت ملزما أن أكون سائقا لعجلات الأثقال ، وبعد هذا تسألني عن كرهي له ، فلا والله لا احترمه أبداً

ومهما عطفت عليه القلوب وبالغت في الميل إليه لن يجد قلبي سبيلا أمامه إلا الميل عنه كل الميل (يدخل جافير)

جافير – أ،ت هنا يا فوشلفان وعجلتك في الخارج تسد علينا المسالك والمعار (ينظر إلى فانتين) وأنت أيتها المرأة ماذا تصنعين هنا ؟

فانتين – عفوا سيدي المفتش . قد أتيت إلى هنا لأجل شهادة توقيع .

جافير – شهادة لك أنت !

فانتين – نعم يا سيدي المفتش ، لكي أرسل نقودي وأنا في أمن من وصولها إلى يد المرسل إليه ، فإن تينارديه وامرأته اللذين يحفظان ابنتي عندهما بمنتفرمي يدعيان دائما بأن لم يصلهما شيء من النقود ، ولما اعيتني الحيل استشرت الناس فأشاروا على بإرسال نقودي إلى الحاكم منتفرمي بموجب شهادة توقيع ، وها أنا ذا . أطلب تلك الشهادة حيث إني مشرفة على إرسال مائة فرنك للوازم ابنتي المريضة

جافير – ابنتي . ابنتي ، وكيف يكون لك ابنة (يقول ذلك منهكما)

فانتين – الست حقيقة أن أكون أما يا سيدي المفتش ؟

جافير – كلا . أبدا .

فانتين – تقول هذا . لما تراه في من سوء العيش ، علي أني أن أنا لم أكن أما ولم تكن لي ابنة لما رأيتني على هذا الحال ، ولكن ما العمل وقد أعياني الأمل وضاقت بي الحيل وخفت على ابنتي كوزيت أن تموت بنزل منتفرمي . و أنك لتراني عائشة في أشقى الحالات لأني أم . فلو لم أكن أما لكنت اليوم سعيدة . ولكنت أقدر أن أموت ولكن إذا أنا مت اليوم فلمن أترك كوزيت ابنتي ؟

الكاتب – دونك الشهادة ، قد تمت « تأخذينها بعد أن تدفعي عشر صلديات عن الورقة المتموغة

فانتين – (تعطيه الشعرة صلديات) أشكرك يا سيدي

جافير – أغربي إذا عنا . وإياك أن تذنبي أو تقدمي على عمل يقودك إلى السجن

فانتين – (تخرج وهي ضاحكة) إلى السجن ها . ها . ها .

جافير – وإليك الآن يا فوشلفان . كيف زرعت عجلتك المحملة بالبلاط في وسط المر ألا ترى أن هذا الموقف يمر منه ناس عديدون وربما يحصل منه حادث جلل

فوشلفان – ليس أنا يا سيد جايفر الذي أوقفها في هذا المكان فهم بلا ريب البلاطون فعلوا ذلك تنكيلا بي وإيقاعا لأنهم يعلمون أني لا أميل إلى المسيو مادلين

جافير – أنت حر تميل إلى من تشاء . ولكن يجب أن تبعد عجلتك عن المر قليلا

فوشلفان – سأعمل ذلك فقط أنا في انتظار رئيس البلاطين (يسمع صوت جلبة خارجا)

جافير – (ينظر من الشباك) ماذا جرى ؟ فانتين تتشاجر في الطريق . ويل هلا مني فسأؤدبن تلك الطائشة (يخرج مسرعا)

فوشلفان – يا لك من قاس سيدي جافير إنك لتظهر دائما بغضك لكل إنسان كأنك خلقت من الجحيم . فقد تكن في ضميرك الحقد لنبي البشر حتى لسيدك الحاكم المسيو مادلين . بل هو بنوع أخص ولكن مالي والانتقاد . فأنا ذاهب لتحويل العربة عن مكانها لئلا

ينالني منه سوء (يخرج ويدخل جافير ووراءه اثنان من الجند قابضان على فانتين)

جافير – تودين أن تشخصي لحضرة الحاكم .

فانتين – نعم سوف أراه . وماذا عساه يصنع بي ، فلا لا دعني انطلق إلى سبيلي وانصرف وشأني يا سيدي المفتش فإنك قبضت على بلا عدل ولا رحمة . نعم كنت شاهدا في تلك الحادثة ولكن في آخرها ولم تع شيئا من أولها . وتفصيل الخبر أني خرجت كعادتي أتمشى في الطريق ذهابا وجيئة وأنا افتكر ابنتي البعيدة عني فصادف مروري من أمام فتى غر فلمحني على هذه الحال وجعل يهزأ بي ويوجه إلى كلمات سباب يعاف لساني عن ذكرها ولم يزل يتحرش بي وأنا لا ألتفت لمقاله ولا أرد على سؤاله حتى أعياه صبري وعيل صبره فأخذ قبضة من الثلج واتهز فرصة مروري من أمامه ودسها بين ثوبي وظهري على غفلة مني . فأه يا سيدي ناهيك عما وجدته من الألم فأنه أخرجني عن رشادي وأبعدني عن سكينتي فأمسكته وأكثرت من لكمه ورفسه وألا فما يكون زعمك يا حضرة المفتش بامرأة مريضة ضعيفة وحزينة يباغتها شاب لم تعرفه قط بمثل ذلك الأذى وتلك الإهانة في هذا الشقاء وهذا المرض (تكح) فإن زعمت بأني كنت أطيش فما وقع مني ذلك ألا لفرط الألم وعدم مقدرتي على تحمله والله شاهد على ما أقول

جافير – وأنا كنت شاهدا في تلك الحادثة ورأيت ما أحدثته من الإهانة للفتى الشريف وسمعت ما تفوهت به في حقه

فانتين – يا رباه (تلتفت يمينا وشمالا) ألا شاهد هنا ممن حضروا

ووقفوا على حقيقة الحال يأتي فيظهر براءتي . أين ذهب ذلك الشاب أين مضى . أين اختفى . آه ليته يعود فاعتذر إليه من فعلي وإن كان هو البادئ بالإساءة

جافير – كفى كفى . وأبقي هذا الحديث لتقوليه في المحكمة

فانتين – في المحكمة وكيف ذلك ومتى ؟

جافير – لا أعرف . غير أنك تلبثين رهن الأوامر على الأقل ستة أشهر في السجن

فانتين – في السجن . أواه . آه . آه . السجن ستة أشهر . اللهم غفرانك. اللهم رحمتك . أن سجني يسبب هلاك ابنتي التي ليس لها سواي من معين ولا ناصر ، فحنانيك يا سيدي المفتش رحماك . اتق الله وارفق بضعف امرأة بئيسة وصن لها حياة طفلتها التعيسة آه . أواه . وامصيبتاه ألا أجد من ينقذني من السجن الذي سيجعل ابنتي تطرد من النزل وتموت جوعا . فآه يا ليت شعري كيف أقدر على وفاء ما يطالبني به صاحب النزل لغذاء ابنتي وكسائها وأنا لا أكتسب في السجن أخماس أخماسه فآه ثم آه قضي القضاء أن أكون من البائسين وقدر القدر أن تكون ابنتي من أشقى العالمين . سيدي المفتش ألا حرك لنا من لدنك رحمة فإنه يجب أن أدفع تلك المبالغ الباهظة فأمر بتخلية سبيلي . آه يا كوزيت يا ابنتي يا حياتي ونعيمي (تقبل رداءه) رحماك . حنانيك رفقا على يائستين تموتان جوعا بلفظة قاسية تخرجها من فيك وتسعدان وتمران بكلمة حنونة تلفظها من فمك العذب

جافير – قد فهمت مرادك وعلمت ما تمرين إليه بحديثك وسوف تذهبين إلى السجن كما حكمت به عليك ولا خلاف لما به قضيت

فيا لك من امرأة عاتية طائشة ولا والله لا تخرجين من السجن حتى تؤدبين فيه تمام التأديب (يدخل مادلين) وهاك حضرة الحاكم فانظري بما ذا يأمر عليك

فانتين – (تنظر إلى مادلين) أهذا هو أنت .... آه إذا اذهبوا بي إلى السجن ... نعم قودوني إلى السجن ففيه يجب أن أموت . و أن تموت كوزيت ... فما تنفعني من هذا الحاكم شفاعة . نعم يا قوم هذا سيدكم مادلين الحاكم هو سبب خزيي وعاري وبلائي ومحني فهو الذي صرفني من مصنعه منذ ستة أشهر .... ولماذا ... لأن لي ابنة ... آه يا ليتها لم تكن خزيا تلك الإبنة ... فلو كان تقاعدي أو سهوي الذي أوجب انصرافي عن مصنعه لكان الأمر أهون علي ولكنني كنت أتعب استطاعتي وانضي قدرتي واستنفذ جهدي في أعمالي بمصنعه ولم أقصر في شيء ولو مرة واحدة فأمر بصرفي ... فآه يا رباه أين العدالة وأين الحق ... أتطرد فتاة تعمل عملها بكل انكماش وكد ... آه ليتني لم انتظم بين صانعاتك يا هذا فما كسبت إلا المصائب التي حلت على من كل فج والتي حاربتها فلم أفلح لأن لي ابنة هي كوزيت التي باغها المرض كما باغتني الضعف والفتور ... وكنت ملزمة بدفع كل مطالبها وما يدفع عنها المرض فبعت كل ما أمتلكه حتى آخر ثوب لي ... وبعت أيضا يا للحسرة شعري .... (تخلع عن رأسها خمارها ويظهر شعرها المقصوص) ، ويحث قضى الأمر ويجب أن أذهب إلى السجن وأن ريحانتي كوزيت تموت و أن أموت أنا أيضا فلتكن مشيئة الرحمن .. نعم فليس لي من السجن نجاة. إلا إذا تعطف على سيدي جافير ورحمتي .. أما ذلك الشيخ الثقيل الوطأة

المريب وفوده فليس له من الأمر شيء ولا أدري والله لماذا حضر ليشاهد حزني ومصابي أما كفاه طردي من مصنعه وهبوطي إلى أدنى منازل الفقر .. فيالك من رجل نحس . قاس .... ويجب على أن أرمي وجهك بهذا الوحل انتقاما منك (ترمي وجهه)

مادلين – لا . لا . مهلا مهلا يا جافير وأطلق سراح هذه المرأة

فانتين – (بغرابة) ماذا أسمعه يقول ؟

جافير – عفوا يا سيدي الحاكم إني لم أتأكد تماما مما سمعت

مادلين – قلت أطلق سراح هذه المرأة

فانتين – (بدهش) آه يا رباه !

جافير – عفوك يا سيدي مادلين هذا يستحيل فيجب أن تقضي أيامها في أعماق السجون

مادلين – جافير يا أيها المفتش . أني أنا الذي آمر بتخلية سبيلها فأني مررت بمكان الحادثة بعد انطلاقك منها قابضا على هذه المرأة فسألت من الحاضرين عن الحقيقة فأخبرني رجل هناك شهد البداية والنهاية وعرف أن الفتى هو الذي بدأ بالإساءة ولو كنت أنت ترويت في الأمر ولم تتهاون لكان الشاب الآن هو الذي يسجن والذي يعاقب

جافير – إن العفو عنها لمن المحال بل يكون ضربا من الجنون فأنها أهانت الفتى الشريف وهذا الشيخ الجليل (يشير إلى مادلين)

مادلين – أما من جهة الشاب فقد أفهمتك الحقيقة و أما من

جهتي أنا فهذا الأمر يختص بي وحدي والعقاب متعلق بإرادتي

جافير – عفوا يا سيدي الحاكم عفوا . فإن عقابها لا يقتصر على شخصك الكريم ولكنه يشمل العدل نعم العدل الذي يجب إتباعه ، ولقد أمرت بسجنها ستة أشهر تأديبا لها وما حكمت إلا بالحق وعلى ذلك ستقضي هذه الأشهر في السجن .

مادلين – كلا ثم كلا إنها لا تقضي فيه ولا يوما واحدا وكفاك عنادا يا جافير ، ولا تتعرض لهذه التعيسة فأني أحكم عليها بالإفراج .

فانتين – يا لجهلي . يا لجهلي

جافير – إني لم أفهمك ما سمعت

مادلين – إن كنت لا تفهم فاخضع لأوامري . وأبرح هذا المكان وكن لي من المطيعين .

جافير – مولاي الحاكم (ينحني ثم يسلم بيده إلى جهته ويخرج)

فانتين – ما هذا . من أرى ، أني حلم أنا ، أم في يقظة . أم في منام . يا رباه كم كنت جاهلة قدر هذا الرجل وكم حملت له في صدري بغضا حتى أقدمت على إهانته فصفح عني وهو قادر على الانتقام فآه ثم آه يا لجهلي ويا لحمقي ولي الويل لما اقترفت في حقه . فهل ليس الذي يخضع له جافير بقادر على أن يأمر بسحتي وفصلي عن ابنتي فأموت في السجن وتموت كوزيت ، فآه تالله ما رأيت نفسا كنفسه الزكية

مادلين – فانتين : يا أيتها البائية التعيسة قد أصغيت لمقالك وحفظته على صفحات قلبي وندمت على ما نالك فإني ما كنت أعرف شيئا من أمرك . وما منعك يا فانتين أن تخبريني بجملة حالك ومالك يوم أخرجوك من المصنع فإنك لو كنت فعلت ذلك لأنصفتك ورحمتك

ولكن بينما يريد الإنسان الأفراح يقدر له الدهر الاتراح فيا فانتين اصفحي عني وسامحيني فيما سببت لك من الآلام واعلمي بأنك اليوم أصبحت مكفية المؤونة والملبس بي وسأجمع بينك وبين ابنتك وسأوف ديونك وأنيلك ما تشائين وتودين ، فلا تأسفي على ما فات ولا تتحسري على ماضيك فإنك بالحقيقة لم تخدشي وجه عفافك ولم تخرجي عن حدود صيانتك وما كنت أمام الله إلا طاهرة الذيل عفيفة الآزار فسمعا . سمعا لكلامي يا فانتين ولا تكوني ذاهلة فأنت حرة منذ الآن .

فانتين – (بذهول) آه يا رباه أصحيح هذا الآله العادل يعفو يعني ويغفر لي ذنبي أممكن أن يكون هذا . آه . آه يا رباه رحمتك يا رباه (ترتمي على قدمي مادلين وتبلهما ويغشى عليها)

مادلين – إيه يا قوم . يا أصاحبي وأصدقائي احملوها إلى دار المرضى (يحملونها) واخرجوا من باب غرفتي هو أقرب لكم وسأحضر لأعودها عما قليل (يخرجون بها وينظر مادلين إلى جافير) يا أيها المفتش انتظر (يقبل إليه جافير) لقد خاطبتك بحدة الساعة

جافير – يا سيدي الحاكم أنت في حلمك كالطود لا تقلقله العواصف وكالبحر لا تكدره الدلاء أما أنا فلا يجد الحلم إلى فؤادي سبيلا .

فوشلفان – (يدخل فوشلفان ويتبعه رئيس البلاطين) وعجل يا سيدي الرئيس من فضلك لاسلمك البلاط

مادلين – إيه فوشلفان يجب عليك أولا إبعاد عجلتك عن محلها ثم تشرع في عد البلاط

فوشلفان – سأصنع ذلك فيها عجل يا أيها الرئيس . (يخرجان

ويسمع صوت ناقوس)

مادلين – هذا ناقوس انصراف العمال . (يسمع صوت عظيم) الصوت (فوشلفان يستغيث) آه أغيثوني . أدركوني قلبت على العجلة أغيثوني .

جافير – (ينظر من الشباك) قلبت العجلة على فوشلفان المسكين وهو تحتها طريح والعجلة تفور في الأوحال .

مادلين – (مسرعا نحو الشباك) يا لشقائه ، أغيثوا الرجل ، أعينون على رفع العجلة .

الصوت – آه أغيثوني ارحموني

جافير – العجلة غارب بالأوحال

مادلين – أيها الرجل أني أعطي لمن يساعده خمس قطع ذهبية خمسة عشر هيا ساعدون . خمسة وعشرين قطعة من الذهب هيا أيها الرجل الأقوياء .

الأب سيمون – (يدخل مسرعا) لا يا سيدي أن الرجال لا ينقصهم المال إنما تنقصهم الإرادة والقوة .

جافير – وليس لعمري على وجه الأرض من يقوى على رفع تلك العجلة اللهم إلا إذا كان من العمالقة ، أو من أولئك المسجونين الذين قضوا حياتهم في سجن تولون .

الصوت – الرحمة . الرحمة المعونة آه . آه

الأب سيمون – يا للشقاء . سيذهب الرجل فريسة الحين فيالهم من جبناء هؤلاء القوم

مادلين – سأذهب إذا بنفسي وأنجي حياة الرجل (يهم فيقوفه جافير)

جافير – لا يمكنك ذلك فهون عليك يا سيدي الحاكم فهل أنت جان فالجان هذا الفتك الجسور

الصوت – (يرتعش مادلين ويسمع صوت فوشلفان) آه سأموت سأموت. ارحموني

مادلين – كلا لن تموت ، ولينجيك الله (يخرج بسرعة ويتبعه الأب سيمون)

جافير – يا له من إبليس قد أقبل على العجلة بهمة قد انحدر تحتها ولكنه لا يقوى على حملها ، ولسوق يموت إذا مع هذا السائق التعيس

الصناع – سيدنا مادلين . سيدنا مادلين .

جافير – ويحك يا مسيو مادلين قد قويت على رفع تلك العجلة ، فيا للعجب

الصناع – فليعش سيدنا مادلين (يدخل مادلين وهو منهوك القوى وأثار الأوحال بادية عليه)

جافير – مولاي الحاكم . أقدم لك تهانئي على سلامتك (يهم مادلين بالخروج) سيدي مادلين كلمة قبل أن تنصرف . عفوك . أستأذنك في إجازة بعض أيام

مادلين – ولماذا الأجازة ؟

جافير – لأني قد عزمت على السفر إلى باريس لأداء شهادة في المحكمة العليا . عن رجل مجرم سفاك عرفته قديما قد كان سجينا في سجن تولون وأطلق سراحه لكنه عاد إلى التلصص وقد خفي أمره على الشرطة من ثمان سنين ولقد أسعدني الزمان بأن عرفته وسوف أذهب للتبليغ عنه وإظهار أمه

مادلين – اذهب

الفصل الثاني

– مادين –

﴿ المنظر الأول ﴾

(اضطراب الضمير)

(يرفع الستار عن المكتب الخصوصي للمسيو مادلين " على اليمين قمطر داخله كتب وعلى اليسار شاك مدلاة عليه ستائر من الحرير الأخضر وعلى منضدة هناك شمعدانان من الفضة ، فوشلفان جالس على كرسي " تدخل الأخت سمبليس وتكتب على المنضدة .

سمبليس – كيف حالك اليوم يا فوشلفان ؟

فوشلفان – أني أشكر فضلك أيتها السيدة الكريمة ، فقد عنيت بي مدة ذلك المرض الذي نزل بي وكاد يقضي على من الضعف فشكرا لك بل ألف شكر، أما حالي فهي واضحة ، وإني أشعر دائما ببعض الألم في إحدى ركبتي وقد يحول ذلك بيني وبين الرجوع إلى

حرفتي ،وربما تحشمت المشاق وتحملت الصعاب في ذلك البستان الذي عينتموني فيه حارسا .

سمبليس – (وهي تكتب) إنك لرجل شريف يا فوشلفان ، وكفاك مجدا إنك تعترف بالجميل لمن يصنع معك المعروف .

فوشلفان – المعروف « اعترف بالجميل « يا لعمر الحق إن هذا قليل ، نعم قليل لمن ينجي حياتي من مخالب الموت بعد أن عالجت سكراته ، وقليل والله أن فديتك بالروح يا سيدي مادلين ، (سمبليس تتم الكتابة وتعطيه الخطاب)

سمبليس – دونك يا فوشلفان أمر تعينك حارسا لبستان دير النساء بباريس ودونك أيضا ما أمرني حضرة الحاكم بأن أسلمه لك يدا ليد لأنك ستغادرنا غدا إلى باريس مشيعا بسلامة الله (تعطيه ورقة مالية)

فوشلفان – (ينظر إلى الورقة) ألف فرنك

سمبليس – نعم وبهذا المبلغ قد اشتري سيدي مادلين عجلتك وجوادك

فوشلفان – عفوك أيها الملك الكريم الطاهر فقد عرفتك لا تنطقين إلا بالصدق والآن أراك تزعمين أن عجلتي التي تحطمت وجوادي المشرف على الهلاك منذ ذلك الحادث يساويان هذا المبلغ الباهظ ، فيالك من محسن كبير. ألف فرنك

سمبليس – إذا كنت تزعم غير ذلك فلا تخال أن المسيو مادلين يزعم زعمك بل يعتبرك رجلا دفع به إلى عمل صالح ، وها هو سيدي الحاكم قد أتى (يدخل مادلين)

فوشلفان – سيدتي سمبليس . سيدي الحاكم يجب أن أخلي

سبيلي من هذا المكان مغر ورقة عيناي بالدموع الحارة . فكم كنت لتعاستي أبغضك أيها الرجل العظيم . فآه يا لسوء الحظ (يخرج)

مادلين – يالك من رجل شريف يا فوشلفان . سميليس يا أختاه كيف حال مريضتنا فانتين

سمبليس – أحمد الله فقد تقدمت في الصحة عما كانت عليه أمس ، وقد أخبرني الطبيب أنها ستنقه من مرضها إذا كان يمكن أن ترى ابنتها

مادلين – وهذا ما سعيت في طلبه فقد أرسلت من خمسة عشر يوما ثلاث دفعات متوالية إلى تيناردیه صاحب النزل الذي هي فيه ولكنه لم يجاوب على طلباتي على أني يا أختاه قد صحت عزيمتي بعد هذا اليأس على أن أذهب بنفسي وأحضرها .

سمبليس – نعم يجب ذلك يا سيدي مادلين لتحيي هذه النفس الزكية والروح البريئة من العناء وإنك ما رأيت ولن ترى من هي أشد منها بؤسا ، نعم ولن تجد أنت الذي أخذت على عاتقك مواساة البؤساء

مادلين – نعم أنا أحب كل البائسين أجل أحبهم جميعا (يجلس) ولكن يا أختاه أني أراكي أحوج إلى محبة قلب واحد قد بالغ في كرهي وتمادي في بغضي ، قلب واحد بلى قلب واحد يا أختاه ولا أدري إذا كان قلب امرأة أو طفلة أو رجل . فأنا أحوج إلى محبة إنسان .

سمبليس – إنك يا مولاي مادلين في سويداء كل قلب وسواد كل عين ونعم كان يوجد في الدنيا كلها شخصان كانا يبالغان في كراهتك وبغضك هما فوشلفان وفانتين ، بيد أن كلاهما أصبحا يومآن لنور وجه معروفك بالسجدات. فما أشد انتقامك من أعاديك .

مادلين – تقولين شخصين فقط يا أختاه (يظهر جافير على الباب وهو يسلم بخشوع) وجافير

جافير – أيسمح لي مولاي الحاكم بالمثول بين يديه

مادلين – بلى يا جافير . وأنت يا أختاه إلى فانتين اذهبي . اذهبي نحوها واعتني بها وقومي بخدمتها حق القيام ، وأأمل أن أهذب في هذا الصباح بنفسي لإحضار كوزيت ألا هيا إليها وطمأنها يا أختاه (تخرج) ما خطبك يا حضرة المفتش ؟

جافير – جئت أنهي إلى سيدي خبر جريمة قد وقعت منذ أيام

مادلين – وما عسى تكون تلك الجريمة ؟

جافير – أن أحد عمال الحكومة الأدنياء قد اتهم بعض كبار الحكام في شرفه وطعن عليه في سمعته

مادلين – ومن عسى يكون هذا العامل ؟

جافير – أنا

مادلين – أنت . والحاكم ؟

جافير – السيد مادلين

مادلين – أنت يا جافير اتهمتني في شرفي ؟

جافير – نعم يا سيدي الحاكم . وقد أتيت أرجو منك أن ترفع أمري إلى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفر خطيئتي . ولا تعجب مني في عدم استقالتي فأنني إن فعلت ذلك خرجت خروجا لا يلحقني معه العار . ولكنني خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم وأعامل بمثل ما يعامل به فقد كنت أكرهك يا سيدي مادلين ولم أحبك قط

مادلين – إنك حر تحب من تشاء وتكره من تشاء

جافير – نعم أنا حر لو كنت اكتفيت بذلك لكنني طلبت منك منذ خمسة عشر يوما أجازة للذهاب إلى باريس ، فهل تدري ما أردت أن أصنع هناك ؟

مادلين – قل . ماذا ؟

جافير – ذهبت ألتمس من كبير الشرطة إمساكك وسجنك

مادلين – إمساكي أنا وسجني . هذا لأني لم أرحمك ورحمت فانتين التعيسة

جافير – لا بل لأنك كنت نصب عيني مجرما أثيما (حركة من مادلين) نعم فإني رأتيك مفتول الذراعين قولي العضل ربيط الحأش وتبينت منك ذلك يوم العجلة وإنقاذك حياة فوشلفان بدخولك تحتها ورفعها عن عاتقه ، فخيل لي أنك جان فالجان (يدهش مادلين) وهو أحد المجرمين الذين يعيشون في الأرض ، ولقد رأيته أنا وعرفته منذ عشرين سنة في سجن تولون أيام كنت موظفا في هذا السجن الهائل وذلك المجرم وأنت في الشبه صنوان ، وفي المماثلة صوغان . وكأنما قددتما من أديم واحد أو شققما من نبعة واحدة فتجاليده تجاليدك وملامحه ملامحك وشيمه شيمك وقصاراي أنك أشبه به من الليلة بالليلة ومن التمرة بالتمرة فما تركت منه مغدي ولا مراحا وما جعلت للذي يجمع النظر إليك وإليه مجالا للريبة أن يأخذك به ويأخذه بك .

مادلين – ثم ماذا ؟

جافير – ولقد زعموا أنه بعد أن قضى أيام سجنه سرق في بيت أحد العباد وسلب من غلام صغير صادفه في طريقه قطعة من النقود ثم انه اختفى بعد ذلك وبالغ في التنكر حتى لم يهتد إليه أحد ولما

حصل بيني وبينك الخصام في أمر فانتين وأخرجتني من أمامك وأنا أجر ذيل الخزي مثقلا بالغيظ عملت على كيدك فاتهمتك وأخذتك بهذا الرجل

مادلين – وما كان جوابهم لك ؟

جافير – أجابوني بالحمق ورموني بالجنون ولعمر الحق أنهم أصابوا في رأيهم كما أخطأت في رأيي

مادلين – لقد أحسنوا وما أسأت

جافير – وأعجب من هذا يا مولاي الحاكم أن الشرطة بعدان ضاقت ذرعا وأعياها الصبر ظفرت بطريدها وعثرت على ضالها ، وأصبح جان فالجان في قبضة الحكومة وهو رهين أمرها وسيقضي أيامه في السجن بعد أن يقرروا له العقاب .

مادلين – وكيف كان ذلك ؟

جافير – قد قبضوا عليه وسجن في سجن الاحتياط وكادت حاله تخفى لولا أن قدر اللّه له سواء المصير ، فإنه قد اتفق أن هذا السجن الذي هو به كان عتيق البناء تكاد تسقط جدرانه فأمروا بنقل المسجونين فيه إلى السجن العام ريثما يتم ترميمه واتفق أيضا أنه كان بهذا السجن رجل تربى في أعماق السجون مجرما ولب في سجن تولون سنين عددا حتى شهدوا منه أخيرا بعض الصلاح وشيا من الاستقامة فوظفوه سجانا وصادف أنهم لما جاؤا بأهل سجن الاحتياط رأى بينهم سجينا عرفه من قديم زمان فصاح به أهلا با يا جان فالجان يا رفيقي في سجن تولون فاستولى الاندهاش على السجين وقال متصنعا اتق اللّه يا أخي فأنا لا أعرفك ولست صاحبك الذي ذكرت وإنما أنا شان ماتيو ولكنهم

أمسكوه ولم يعيروه أذنا واعية وراجعوا صحيفة أعماله فوجدوه هو بعينه جان فالجان ، ثم إني ذهبت بنفسي لأتحقق حاله وما فتحت عيناي عليه حتى صحت : ألا هو هو جان فالجان ، وبالحقيقة أني عرفته معرفة لا مجال للريب فيها ، ثم أني بعد ذلك علمت بمزيد الأسف أني جنيت عليك جناية عظيمة تضيق دونها ساحة العفو ولا يسعها السماح

مادلين – أواثق مما تقول ؟

جافير – وكيف لا أثق وغدا يوم المحاكمة . يظهر فيه حال جان فالجان ويعلو الحق على الباطل إن الباطل كان زهوقا .

مادلين – غدا إذن ومتى تسافر أنت ؟

جافير – هذا المساء

مادلين – كفاني منك تبليغا يا جافير . واذهب إلى شؤون وظيفتك

جافير – عفوا سيدي الحاكم أني أطلب منك أن تقتص مني بسيف العدالة

مادلين – جافير يا جافير يا حضرة المفتش . و أنا أطلب منك أن تبقى في مقر وظيفتك فلا تلح في الطلب واستغفر لذنبك إن كنت من الخاطئين .

جافير – قد حاولت اتهامك متعمدا وأفرغت جهدي في كيدك متقصدا فانتقم مني يا سيدي الحاكم ولا تكن معي من الراحمين

مادلين – إن كنت تزعم أنك أجرمت فإني عنك من الصافحين (يمد له يده)

جافير – (يتقهقر) عزيز على أن تصافح يدك الكريمة يدي الأثمية (يمشي بعض خطوات ويعود) سألبث قائما بشؤون وظيفتي حتى

يأتي الخلف (يسلم ويخرج)

مادلين – (يرتمي على المقعد) الآن صرت بمفردي ، فإن يا ترى أوجد، وهل أنا لا أحلم . وهل كل هذا صحيح ، رباه أصحيح كنت أكلم جافير الآن أصحيح أنه أخبرني بهذه الحوادث التي تثور دمائي لها في عروقها ، شأن ماتيو من هذا شأن ماتيو . هو رجل يماثلني خلقا ويشاكلني رسما . أواه أن هذا لعظيم (يتمشى قليلا) ما العمل ما العمل غدا المحاكمة ، غدا يقضون على هذا البريء بالشقاء غدا يا رباه إذا يجب على أن لا أضيع دقيقة واحدة من الزمن ، ينبغي أن أسافر إلى باريس ، وأرى تلك المحاكمة ، ولكن أأظهر لهم نفسي . أأعلمهم أواه أن هذا لعظيم أن هذا لعظيم (بعد قليل) ليهدأ إذا روعي ولتقر فورتي وليثب إلى حلمي وإلا قضي الأمر (بفكر) آه . آه تذكرت (ينادي الخادمة فتدخل) مالسيل ياماسيل

الخادمة – مولاي الحاكم

مادلين – مالسيل . أرجو منك أن تذهبي حالا إلى شوفلير وإنك لتعرفينه، فاكتري لي عربة وعرفيه إني في احتياج إليها فيأتيني بها قبل الصباح في الساعة الخامسة

الخادمة – عرفت قصدك يا مولاي أليس لتذهب بنفسك لإحضار كوزيت ابنة السيدة فانتين فما أطيب نفسك وأكرمك يا مولاي

مادلين – أرجو منك أن تذهبي حالا يا مانسيل ، واعلمي أن عندي أشغالا مهمة تدعو إلى وحدتي فأوصدي الباب لكلي لا يزعجني مزعج . (تخرج الخادم) (بعد قليل) آه يا ربي رحمة من فيض

نعمك الواسعة اهدئي إلى سواء السبيل . و أنت . أنت يا شاهدي الذي كنت نورا لروحي تسبح في سبحات بهجتك . يا مرشدي الذي كنت ربيعا لقلبي يسرح في روضتك يا حاكمي الذي كنت شفاء لصدري يشفي بحكمتك ، يا قائدي الذي كنت زماما لفكري في سرحته وجولته . يا ناصري الذي كنت مناصا لعقلي من ورطته يا هذا الذي توفاك الله وسبحت روحك في جنات النعيم والذي أنت حي في قلبي الكليم ، يا هذا الذي قلب لي يوم ذلك المشهد العظيم ، يوم وقفت أمامك مجرما أينما « أني اشتريت نفسك فلا تكن عليها من المسرفين « أغثني . أدركني . أعني . أواه لقد أظلمت الدنيا في وجهي وكأني أشعر بتلك الساعة الهائلة ، التي وقفت فيها أمامك أيها العادل وثقل جرمي ينقض ظهري ، فيا هذا العابد الكريم الذي سببت سعادتي وسروري ونعيمي ، مالك سكت اليوم وضاع ذا السرور وذا النعيم وذي السعادة جافير. جافير . هذا الرجل الذي أزعجني من طويل زمان وأرعبني في كل مكان . وسلبني كل أمان وزعمني جان فالجان . قد أصبح يضرب أخماسا لأسداس، ويعتريه وسواس بعد وسواس ، وأصبحت حاله التباسا في التباس وقد أتى يزعم أنه أجرم وإنه بخير جان فالجان أعلم ، ثم إنه يطلب مني السماح على أنه وقف على رجله جان فالجان فإنه ليسرحني . إذن ليتم الأمر وأنا حر أنا مطلق السراح أنا أتنسم الهواء النقي

أنت متمتع بنسيم الحرية . كيف . والآخر البريء الذي يردد أنفاس الصعداء ويتجرع كأس الضيم . أنسيته أم غاب من ذاكرتك أنك مطمئن البال تتنسم الهواء النقي . نعم هذا ما تقوله لك فطرتك الطبيعية

وحاستك الحيوية . المحبة للحرية . ولكن العقول . العقل ماذا يقول لك العقل. عقلك أيها الإنسان .

سمعا سمعا إنه ليقول لك ، أن الذي يحدث هناك ليس من الحوادث العادية وإنه يلزم المعاونه إلى انتهاز الفرصة إذا جاءت خارقة للعادة ، بل يلزم نفوذ لا تصل إليه استطاعة بشر وتأثير ترفع أن يأتيه إنسان لمداراة هذه المشابهة ومراعاة هذه المماثلة العجيبة التي هي معجزة في بابها ، بيد أني ليس في فيما حدث يد ولا دسيسة . ولكن ألا يكون هذا الاقتصاص من أ<لك أنت يا منجي الذي كتبت لي من عندك النجاة منذ ثمان سنين (ينظر إلى الشمعدانين الفضيين وي١هب إليهما ويقبلهما) وأنتما يا هذان الشمعدانان اللذان حافظت عليهما منذ زمان ووضعتهما في اسمي مكان . لينجياني في كل ملم يداهمني ولا يدعاني استسلم لعوادي الدهر ، فهل أنتما يا هذان الشمعدانان اللذان تنجياني في هذه الدفعة أيضا من هذه الحوادث الفظيعة ، وتبعداني عن هذه الدعوة الهائلة التي وجهت ضدي والتي تقودني إلى أعماق السجون – من يعلم – إذا كانت شفاعتكما المباركة وتوسلاتكما المقدسة هي التي تعصمني اليوم . وتكتم الناس أمري – من يعلم – من يعلم – ولكن ويحك أيها الخبيث . أيها الخائن الخناس كيف تقدر أن تشرك هذا الملك صاحبهما في جنياتك وتطلب منه أن ينجيك ويا ليت شعري كيف ينجيك .. يا جان هذا الرجل العادل قد وضع حدا لحياتك بعد أن سلبته تلك الآنية الفضية . ولكن أي حد تزعم فليس أنه أخفى جنايتك بل كفر عنها . ليس أنه نجى شخصك بل اشترى نفسك الخالدة ، ليس أنه تقصص من الشرطة بل قال لك لكي تصير

رجلا شريفا ذا نفس علية ولكي تنسى ماضيك المكروه وتمحو آثامك الفظيعة فأما إذا أتيت أمرا فريا فقد لا تمحو من ماضيك شيا بل تزداد في غيك وترجع كما كنت لصا فتاكا ، تسرق من رجل آخر اسمه ولقبه ، وتسلبه أمانه وحياته . يا للبلاء أتكون لصا قاتلا فتاكا تقتل النفوس البريئة . جان فالجان . يا جبان أتود أن تصبح لصا أترغب في أن تمس فتاكا . لا لا أكون لصا أبدا . ولم أتوقف عن الذهاب إلى باريس وحضوري المحاكمة . لم لا أذهب وأنقذ هذا الرجل البريء. لم لا أسلمهم نفسي بدلا عنه لم لا أبلغهم اسمي وأعرفهم بشخصي (بعد قليل) قضي الأمر وسأذهب وأجعلهم يقبضون علي . ويزجونني في أعماق السجون نعم سأسلمهم نفسي (يرتمي على المقعد خائر القوى) آه أنا أتألم . أتوجع أئن اشعر كأن زوبعة تهيج في رأسي والحمى تتقد في جسمي . و أكاد اختنق (يذهب إلى نافذة ويستنشق الهواء بشدة عظيمة) آه ما أطيب هذا النسيم العليل

(يسير قليلا ثم يقول بلهجة بعد الافتكار) ولكن فانتين . فانتين أنسيتها تلك المرأة التعيسية . يا لعمري أني نسيت كل شيء نسيت كل موجود ما عدا نفسي . لم أفتكر إلا في تجاه شخصي من مخالب الهلاك . فيا للقسوة نسيت الناس وواجباتي نحوهم . فكم آذيتهم هؤلاء الأبرياء كم سببت لهم من الآلام حتى اليوم . اليوم نعم لو سلمتهم نفسي وقبضوا علي وزججت في السجن فيا ليت شعري ما تكون عاقبة هذا الفراق هنا المدينة عامرة والتجارة منتشرة والعمال والنساء والصغار والرجال والمسنين والفقراء والمساكين كلهم يكتسبون فإن ذهبت عنهم فماذا يا ترى ؟

يحل بهم جميعا . يا ويلاه يصيح إذا هنا صائح : تأخرت المدينة تقهقرت التجارة . أملق الموسرون . أفلت شمس الصنائع . أظلمت أنوار المخترعات . وينوح نائح : كشدت الحرف تراخت الروابط . ماتت العزائم . فترت الهمم . ذهب الاتحاد . ويندب نادب : ضاعت المدينة كل الصناع . يئس المنتصرون . قنط الراجون .فآه يا للأسف يا للحسرة . ويا للضياع . إنه بعد هذا وذاك ينعي ناع : ماتت فانتين . وهي بعيدة عن ابنتها أفاضت الروح وهي على سرير المرض عالجت سكرات الموت وهي تكرر اسم ابنتها فآه آه . اواه (يمشي على المرسح كالمجنون) وأنت أيها الوجود الظالم ويا أيتها الطبيعة الغاشمة ماذا قدرتما لكوزيت . زاذا كتبتما لها من المصائب ويلاه ويلاه ماذا يحل بها كل هذا الويل وكل هذا البؤس وكل هذا الدمار . من أجل من يا رباه أمن أجل رجل سفاك . أمن أجل رجل مجرم . أمن أجل رجل فتاك . هو أنا . يا للبلاء . ما هذا الخطب الجلل . ما هذا الحادث الكبار . ما هذا الشأن العجاب ومن ذا الذي يحول هؤلاء القوم إلى الحضيض وينزلهم إلى هذا الدرك ويؤيسهم من ذاتهم بعد أن صاروا كيت وكيت . هو ذاك الرجل الذي يشابهني هو ذلك الذي أخذوه بي وأعطوه اسمي . والذي سيقبض عليه من أجلي ويزج في أعماق السجون بدلا عني . ويقضي بقية عمره في أسوأ الحالات يا ليت شعري يا سيدي مادلين . يا حضرة الحاكم أنت تبرز هنا بين الأمراء والأعيان . ويصيح وراءك صائح الأمان هذا سيدنا العظيم اهرعوا الحضرته ركعا سجدا فهذا هو سيدكم المطاع الذي يحترمه الكبير والصغير ويعظمه الأمير والحقير . ثم سر في طرقات تلك المدينة

العظيمة وتتسم نسيم النعيم والحرية تجر أذيال السعادة ويحرسك لفيف من الملائكة العظام . ثم هناك في أعماق السجون ينوح نائح: يا للعدالة سلبوني اسمي وحريتي وسجنوني ظلما وعدوانا . ويتوجع . يا للعدالة ما هذا البلاء الذي أتكدبه . ويتألم . ما هذه القسوة التي أعامل بها . ويبكي. ما هذا البرد الذي أقاسيه . وهناك أيضا على أبواب السجون يصيح صائح . هذا جان فالجان . المجرم الفتاك . الأثيم السفاك . قد أصبح مكبلا بالسلاسل والأغلال . يجر أذيال البلاء والشقاء . إلى أن يناله الفناء ويراوح من شروره العالم بأجمعه . . رباه ما هذا الارتباك مالي أصبحت ضعيف الإدراك . مظلم البصيرة . مطفأ شعلة الذكاء ولم أنظر ولا أتبصر وأشعر ولا أعقل ولم أقول ولا أقبل . وأقوم ولا أثبت لقد كذب هؤلاء القضاة والحكام فإنهم نعم ينطقون ولكن بغير صواب وينظرون ولكن بغير نور . ويحكمون ولكن بغير عدل . ويشهدون ولكن بغير عقل . ولعمر الحق إن هذا المتهم البريء يشكو ولكن لغير طبيب . ويسير ولكن على غير هدى . ويتحرك ولكن بغير نظام ويتألم ولكن لا يعرف الدواء ويئن ولكن لا يهتدي لوقع الداء . فأبشر أبشر فسوف تعرف داءك وتهدي لمعرفة دوائك . وغدا أكون بباريس وأنجيك يا هذا البريء

فالوداع إذا أيها الوجود الهنيء . الوداع أيها الشرف أيتها الحرية آه لن أعود إلى التريض بين الحقول المخضرة الزاهرة ولن أطوف بين شوارع تلك المدينة العامرة ولم أعطي دريهماتي إلى الأولاد المساكين ولن أدخل إلى هذه الغرفة الهادئة ولن أنام بهناء على فراشي اللين ولن أكتب بهدوء على مكتبتي ولن أطالع مجلداتي العلمية .

آه . آه وأنتما يا هذان الشمعدانان لن أرى منظركما البهيج ولن تنيراني بضوئكما الساطع . الوداع الوداع يا هذا القصر منبع ثروتي ونعيمي ومستوطن عزي وسعادتي ومرجع وحشتي ومستودع آمالي الوداع إذا . إلى السجون . إلى السجون يا جان فالجان هناك ربيت هناك شببت . هناك تعودت على افتراش الأخشاب وجر السلاسل والأغلال وضربات السياط وسباب السجان الذي كم تألمت منها وأنا في ريعان شبابي فكيف يا حسرتاه وأنا شيخ هرم فإن . آه إن هذا لعظيم إن هذا لعظيم . وإني لا أقدر على احتمال هذه المتاعب لضعفي وشيخوختي . ولكن ما العمل . يجب أن أذهب فلقد وعدت ولسوف يكون (يركع)

إلهي إنني عبدك عصي * ولكن لي برحمتك التجاء
أكاد أذوب من خجلي إذاما * ذكرت البعث أو ذكر اللقاء
وأبكي خوف يوم فيه تبدو * خطيئاتي وهل يجدي البكاء
إلهي إن يكن ذنبي عظيما * فأعظم منه حلمك والعطاء
إلهي أنت عن عملي غني * فطاعتي وعصياني سواء
فسامحني بفضلك وأعف عني * إنك أملي ويشملني الرضاء
فإن أذنب فإخلاصي شفيعي * وما لي حيلة إلا الدعاء
ولم آت الخطيئة عن عناد * ولكن هذا حكم القضاء

(يضع يديه على رأسه بخشوع ويخرج)

(المنظر الثاني)

(المحاكمة)

(يرفع الستار مبينا هيئة المحكمة العليا بباريس . وفيها الرئيس والمحامي العمومي ومحامي المتهم وشأن ماتيو بين اثنين من الجند وجافير مع الشهود ثم العمود حضورا)

المحامي العمومي – هكذا أيها السادة القضاة . هذا اللص المجرم الذي سلب الغلام الصغير فقطعة النقود في الطريق منذ ثمان سنين قد قبض عليه مرة أخيرة وهو يتسلق حائطا ومقتضبا فرعا من التفاح وأنه ليتظاهر بالبله والحيرة . وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والدهاء . إلا أنه لا يخدعنا ولا تروج علينا حيلته . وإنه ينكر كل شيء حتى اسمه . على أنه يوجد شهود أربعة يعرفونه معرفة الأم لولدها أولهم المفتش جافير . ثلاثة من المسجونين بتولون كانوا رفاقا لهذا الشقي منذ كان سجينا معهم وهم شندليو . وبروفيه . وكوش باي فأوجه إنظار حضراة القضاة إلى العدالة التي ينبغي علينا إتباعها والسير بموجبها

جافير – (ينتصب واقفا) سيدي الرئيس * إني لا أرى وجودي هنا بمكان من الأهمية وأود أن أعود إلى منتراي سيرمير للقيام بأعباء وظيفتي

الرئيس – على أنك قبل أن تغادرنا * تظهر لنا آخر فكرة ترمي بها في شأن هذا المتهم

جافير – إن ما رأيته في أول مرة شهدته هي ما هو عليها إلى

الآن وإني عرفته معرفة لا دخل في بابها ريب ولا مرية (ينظر إلى المتهم ويشير) فهذا الرجل لا يدعي كما يدعي شأن ماتيو إنما هو ذاك المجرم جان فالجان وطالما شهدته بتولون وجاذبته أطراف الحديث . وقصارى أني أعرفه تمام المعرفة

الرئيس – الآن يمكنك الذهاب إلى حيثما تشاء (يخرج جافير بعد أن يسلم) وأنت أيها المتهم قف (يوقفه الجنديان) ماذا تود أن تقول ؟

شان ماتيو – أود أن أقول إني برئ . نعم ولست غريمكم جان فالجان. ولا أعرف هذا الرجل وما شهدته قط ولو مرة واحدة في حياتي ز إنما كنت سائق عربات بباريس . وقد استخدمت حوذيا عند السيد يالوب بشارع الأوتيل وما عليكم إلى السؤال عن صحة ما أقول

الرئيس – أيها المتهم أحذرك مرة أخرى في منفعتك ومصلحتك أن تتخذ الحق شعارك فيما نسألك عنه فأجب بصراحة أأنت جان فالجان المجرم المطلق سراحه أم لا ؟ هيا أجب بلا أم بنعم

شان ماتيو– يا للعدالة . يا للعدالة أنا لست إلا شان ماتيو وهذا لعمري لا يدعوا إلى برهان وعلم الله أني لم أسرق قط . وإنما رآني جندي وأنا أجمع بعض تفاحات كانت منثورة على الأرض فادعي على بأني تسورت الحائط واقتضبت فرعا من التفاح وقد أودعني من أجل ذلك السجن فقضيت فيه ثلاث سنوات ظلما وعدوانا . واليوم أراكم تسلبونني اسمي وشخصي فيا للقسوة ويا للظلم . أي ذنب جنيته حتى تأخذونني بهذا الرجل المجرم وكيف تنسبونني إلى ذنب أنا

منه براء . كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب . فلا أوجه إلى الظلم قولي بل إلى العدل أوجهه قائلا بأني لست ذلك الرجل المنشود (يجلس)

المحامي العمومي – أي حضرة الرئيس . أن هذا المرائي قد بالغ في الخداع لكننا لا يفوتنا أمره فلتأمر بأشخاص رفاقه المسجونين سندليوا وبروفيه وكوش باي لا ستجوا بهم للمرة الأخيرة . ثم ننظر بعدها ماذا يكون جوابه

الرئيس – فليحضروا ثلاثتهم (يدخلهم بعض الجنود) وأنت قف يا أيها المتهم وأصغ

شان ماتيو – (يقف) ألا ينتهون . مما هم فيه يعمهون

الرئيس – شندليو . ألا تعرف هذا الرجل . ألا تتذكر أنه قضى معك سنين عددا في سجن تولون . ألا تخبرنا بأنه هو جان فالجان رفيقك بالأمس ؟

شندليو – أجل يا سيدي الرئيس هو رفيقي جان فالجان . ولقد عرفته من أول أن وقع نظري عليه . فهو هو بلا خلاف

الرئيس – وأنت يا بروفيه ما قولك ؟

بروفيه – إن الأمر يا مولاي لأوضح من الصبح للعيان . فهلا أعرف رجلا مكثت وإياه سنين خمسة تحت سلسلة واحدة

الرئيس – أحسنت ! وأنت يا كوش باي

كوش باي – هو يا مولاي رفيقي جان فالجان الذي اتفقت وإياه على الهروب من السجن ونجينا معا ثم أعدنا إليه بخفي حنين ونحن دائما خلين متوادين

شاني ماتيو – يا ما أقبح كذبكم

الرئيس – أيها المتهم * أما كفاك أن تسمع ثلاث شهادات من رفاق لك فعلا الجحود * وأي كلام تعلل به ولا تصرح بالحقيقة

شان ماتيو – إنما أقول أني من المظلومين وهم من الكاذبين (يسمع أصوات وجلبة)

الرئيس – أيها الحارس * دعوا الناس في سكينة ولا تجعلونهم يصيحون (يدخل مادلين)

مادلين – شاندليو . بروفيه * كوش باي * وجهوا أنظاركم إلى هذه الناحية وانظروا إلى وجهي !

الجميع – السيد مادلين

مادلين – أيه *إنتم لا تعرفونني (يذهل السجناء الثلاثة) لكنني أعرفكم أنا . فيا شندليو . ألا تتذكر المبرد الذي خبأناه معا تحت أرض سريرك في أول يوم من اتفاقنا على الهرب . ربما إنك نسيت ذلك ولكنك أنت يابروفيه أليس بذراعك الأيمن آثار حرق عميق طالما شهدته فيك . فأجب أصحيح ما أقول ؟

بروفيه – هذا صحيح !

مادلين – لقد نطقت بما أرومه منك فإليك إذا يا كوش باي يا أيها الرفيق أليس أنت السجين الذي هربت معي . ألست أنت أيضا الذي قبض عليك بالثاني وزججت بالسجن معي . وقد وضعت بذراعك الأيسر عد تاريخ هروبك وهو سنة ١٨١٥ خطت بحروف تضرب إلى الزرقة . فاكشف عن ساقك

كوش باي – هاك ذراعي (يكشف)

الجميع – هذا صحيح . هذا صحيح

شان ماتيو – يا ري إني بريء الساحة وقد أخذوني بهذا الرجل المجرم ظلما وعدوانا وأصبحت لا أقدر على أن أنتصل مما رموني به فيا رحمن يا عادل هل ليس للحق من رجوع إلى أهله وإن يقر في قراراه ويرد إلى معدنه فآلام الظلم وحتام العدوان وقد كان الإفراج عني وجهة آمالي وحد=يث أحلامي فطاش سهمي وكذبتني ظنوني حتى أمسيت أمتعض أسفا وحتى ذهبت نفسي حسرات وأنهار جرف اصطباري فآه ثم آه كم في السجن من مظلوم

جان فالجان – إلى أيها المتهم البريء قد أخصب زرع أمانيك وأخضر عود رجائك فلا تك ندمان سدمان وأنت يا حضرة الرئيس مر بتسريح هذا البريء وبالقبض علي نعم فأنا أنا ضالتكم الرجل المنشود أنا أنا جان فالجان المنكود

الفصل الثالث

– كوزيت –

(المنظر الأول)

(فانتين تموت)

(يرفع الستار عن حجرة فلنتين بدار المرضى * على اليمين باب غرفة سمبليس وعلى اليسار نافذة وبالوسط سرير فانتين وهي راقدة عليه وعلى ناحية منضدة جالس بجوارها الطبيب . الوقت مساء)

سمبليس – (تقترب من فراش فانتين) كيف تجدينك اليوم يا فاتنين ؟

فاتنين – أجدني أصح يا أختاه فقد خفت وطأة الألم عني وأود لو أشاهد سيدي مادلين (تكح)

سمبليس – (إلى الطبيب) على ناحية) ها هي قد طلبت مشاهدة السيد مادلين . فما عساني أجيبها

الطبيب – إنها أمست بحيث لا يدري أحية هي فترجى أم ميتة فتعني ولعمري لا علم لي بغياب السيد مادلين

سمبليس – قد غادر المدينة صبح أمس . على أنه لم يعرفني وجهته ومكثه

فانتين – أنتما تتحادثان عن السيد مادلين . فلماذا تبتعدان عني وتتكلمان همسا . وأي مانع يمنعه عن زيارتي . فهلا يحضر الآن لأراه . فطمئنيني يا أختاه

سمبليس – فانتين هدئي روعك وهوني عليك فلسوف يحضر

فانتين – ولماذا لا يحضر الآن * آه يا أختاه أراك تمدين حبل المطاولة وتسوفيني في رؤيته تسويفا على أن عيني تطمع في أن تشاهده هذا الرجل العظيم الذي تقف عنده آمالي

الطبيب – (لسمبليس) أخبريها أنه بمصنعه لإشغال مهمة

سمبليس – (للطبيب) ولكنني لا أعرف الكذب (تقترب من فانتين) فانتين *إن سيدي مادلين سافر منذ صباح أمس

فانتين – (بفرح) سافر * آه يا للفرح * سافر آه يا للفرح * سافر واطرباه* سافر ليحضر كوزيت فوا فرحتاه سأنام إذن براحة وسكون يا أختاه. وسأخفض لك جناحي وأعمل من الآن بكل ما تأمرين . نعم كنت من آونة غشومة لا أرسخ لمطالبكما النافعة وأصررت على رفضها جميعها وتتابعت في الجهل حتى لجحت في العثار فالعفو . العفو يا أختاه فقد نضوت عني ثوب العصيان . وأن الله لرحيم رؤوف . والسيد مادلين رجل عظيم وعطوف . آه ذهب ليأتيني بكوزيت ريحانتي آه يا لسروري وفرحتي . إذا أراك يا كوزيت. ما أعظم هذا السرور الذي أشعر به . ألا تشاهدين يا أختاه في انشراحا وابتهاجا

ذسمبليس – أجل يا فانتين أراك مسرورة الخاطر ولكن ينبغي

لك أن تهدئي الآن ولا تتكلمين

فانتين – (لنفسها) نعم يا فانتين كوني هادئة ساكنة مطمئنة . فلسوف ترين ابنتك وتشاهدين ريحانتك وإن الأخت سمبليس محقة في طلبها السكون وعدم التكلم . نعم وكل شيء يحتاط بي محق . أليس كذلك يا سيدي الطبيب ألا تأذن لابنتي كوزيت أن تنام في سرير صغير بجواري فتهجع هجوعا هادئا هنيئا واحي ليلي ساهرة على حراستها ولا يغلبني النوم لحظة من الزمن ما فتئت غافلة بسكينة . ثم في الصباح عندما تتيقظ من نومها وتنبعث من رقادها اقول لها بحنان وإشفاق عمى صباحا يا ابنتي . آه متى اغتبط بنوال تلك الأمنية واسمع كلامها العذب وأرى وجهها الصبوح وأضمها إلى صدري وأقبلها. آه يا كوزيت يا روحي

الطبيب – أعطني يدك يا سيدة فانتين (يجس نبضها)

فانتين – هاك يدي . ها ها إنك تزعم إنني ما برحت تدنفني الآلام وإني لأجد راحة في جسمي ونشاا في نفسي لأن كوزيت ابنتي ستحضر وسأعانقها وأقبلها

الطبيب – نعم . ثم نامي الآن . فإن في النوم راحة لك عظيمة فنامي في هدوء وسكينة (يجلس ليكتب على منضدة وتبقى سمبليس جالسة على مقعدها بجوار فانتين وهي تطالع في كتيبها)

فانتين – (تتغنى بهذه الأبيات)

أنت الدواء من السقام * كوزيت يا بدر التمام
فإذا رأيتك لحظة * عاد الشفاء و الابتسام
مذ بنت عن عيتي مضى * عهد السلامة والسلام

والسـهد حـلله العنـا * والنوم في نظري حرام
وتبـدلت تـلك المسر * ة بالعنـاء و بالسـقام
والنجم رق لحـالتي * والنور في عيني ظـلام
أواه من هـذي الهمو * م فأنها عنـدي جسـام
فالعـين تبحث جهـدها * والقلب مشـتعل الضرام
والنفـس في أحزانهـا * تشكو إلى باري الأنام
مـن لـي بأن ألـقى جبـينك و هو غاية ما يرام
مـني على بزروة * أقضي بهـا حق الذمام
إني أنام حزينـة * علي أراها في المنام

(ثم يضعف صوتها فتنام ويسود السكون في الحجرة وبعد قليل يدخل المسيو مادلين كأنه يتسرع)

سمبليس – إيه يا سيدي مادلين أتيت ، ما كان أطول غيابك فقد شملنا اليأس وسئمنا الانتظار وكم توكفنا رجعتك وراعينا أوبتك

مادلين – البدار البدار . العجل العجل فما أنا بحر إلا بعض ساعات (للطبيب) كيف تجد فانتين نفسها اليوم ؟

الطبيب – إنا لنتململ وتتملل . فقد بلغ منها الضعف وتحكم عليها المرض، وتملكها الحمى من زمن . ودامت معها على أسوأ الحالات

سمبيليس – وإنها تفتكر أن السيد مادلين ذهب ليحضر ابنتها أو ليس كذلك فعلت ؟

مادلين – كلا . فلقد كنت في باريس

سمبليس – يا رباه !

الطبيب – وهذه الأم التعيسة التي تتضور من الحمى وتتقلب

ظهرا لبطن لابنتها

مادلين – أأمل أن تكون كوزيت هنا في يومين

الطبيب – لآت حين عودة . نعم وربما لا ترى ابنتها . ويا ليت شعري متى أفاقت كيف أساجلها في ابنتها وتساجلني

سمبليس – إذا يختفي السيد مادلين ولا يظهر لها نفسه

مادلين – كلا يا أختاه . ينبغي أن أخاطبها . بل يجب أن أودعها أو لم أقل لك إني حر بعض ساعات (يذهب إلى فانتين ويمسك يدها)

فانتين – (تتيقظ) وكوزيت . أين كوزيت (تنظر يمينا وشمالا)

سمبليس – يا رباه هذا ما أدركته من أو وهلة وأشربته من أو رمزة

فانتين – أين هي كوزيت ابنتي . لماذا لم تجلسوها على فراشي قريبا مني حتى إذا ما انتهيت من نومي وجدتها نصب عيني تقرئني السلام ، فآه يا كوزيت كنت أحسبني أستيقظ فأراك غارقة في بحار محاسنك وترينني متقمصة لبأس الصحة متقلبة في درع العافية فأما وقد لم أرك وتريني فسأموت مرددة ذكراك

الطبيب – ولكنك محمومة . وهذه الحمى يا فانتين تحول دون رؤيتك لابنتك الآن لأنها تزيد هياجك هياجا وألمك ألما . فأرجو منك أن تلبثي في سكون ليتم الأمر على غاية ما يرام

فانتين – نعم قد أردمت معي الحمى وتشريتني وتخونت جسمي

وتآكلت لحمى ولكنني أؤكد لك أني أفقت من مرضي العضال ونقهت من علتي على أني لم أكن لأؤمل الشفاء بعد طول هذا الشقاء

الطبيب – إنك تسببين لنفسك الأذى من حيث لا تدرين منشأه أما قلت لك راجيا أن تلبثي في سكون وتنتظرين برهة حتى تزول عنك الحمى . فما بالك تتسرعين

فانتين – عفوا يا سيدي الطبيب عفوا . إني أطلب منك السماح فسأنتظر كما تشاء ساعة ساعتين أو أكثر لكنني أقسم لك أن رؤيتي ابنتي لا تهيج آلامي فقد جلا الله عني المرض ومسح على بيد العافية فهل تؤكد لي أنهم يحضرونها الآن وأنا أعدك بالهدوء والسكينة . ويا سيدي الطبيب لماذا تناقشني وأناقشك وقد شفيت بحمد الله ولن ينال مني الهياج

الطبيب – (يعطي أوامر إلى سمبليس ويخرج) سأفعل ذلك

فانتين – سيدي مادلين . أرأيت ابنتي وشهدت جمالها الرائع فاكتحلت به عيناك . سيدي آه يا من هو أحني الناس ضلوعا وأعطفهم قلبا ألا حرك لي منك رحمة وأبسط على من لدنك حنانا فاسمح لكوزيت أن تحيي ميت رجاء أمها التعيسة

مادلين – كوزيت يا فانتين فتانة المحاسن . رشيقة القد . هيفاء القوام . حوراء العينين فاترة اللحظ ما فتحت عيناي على أتم منها حسنا ولا وقع طرفي على أجمل منها صورة قد قرأت في وجهها نسخة الحسن وكأنما هي حورية من حور الجنان بل الحسن مجسما والجمال ممثلا وقد قابلتني بصدر مشروح ومحيا منبسط وبوجه يترقرق فيه ماء البشر فيا فانتين صبرا صبرا حتى يزول عنك هذا الضعف والفتور

فانتين – وأطرباه ما أسعد أيامي القادمة (يدخل جافير فتراه) أواه جافير . أغثني يا سيدي مادلين

مادلين – هدئي روعك . لا تخافي يا فانتين . فأنه لم يأت من أجلك بل من أجلي أنا قد أتى

جافير – هيا إذن أسرع

سمبليس – سيدي مادلين !

جافير – أيتها الأخت الصالحة . إنك لا تنطقين دائما إلا بالصدق ولم تعرفي قط معنى للكذب والتلفيق . فلماذا تدعين هذا الرجل بسيدك مادلين . لماذا تسمينه بهذا الاسم . إن هو إلا ملفق (يتلفت إلى مادلين) دونك التصريح بالقبض عليك فانظره

مادلين – (بخشوع) جافير ...!

جافير – (بفظاظة) أنهم يقولون لي يا حضرة المفتش

مادلين – يا حضرة المفتش .. كلمة بلا بل رجاء . (يقول بصوت ضعيف)

جافير – أعل صوتك يا هذا . فأنهم يتكلمون أمامي بصوت عال أفهمت لي أنا

مادلين – (يتكلم همسا خوفا من أن تسمعه فانتين) أجزني يومين . يومين شفقة منك ورحمة . يومين فقط لأجل أن أذهب فيهما إلى منتفرمي . احضر كوزيت . ابنة هذه الأم التعيسة المشرفة على الموت وأدفع بما تأمر به بل اصطحبني إن شئت . يومين فقط

جافير – (رافعا صوته) يومين فقط وهما عندي من أجلك مدة من الزمان يقصر عمر الدهر عنها طولا . هذا ربما كان ضحكا وهذرا

يومين حرية لك أنت . لأجل أن تذهب إلى منتفرمي وتحضر كوزيت ابنة هذه المرأة

فانتين – (بخوف) كوزيت . ابنتي . يحضرها . إنها إذا بعيدة عني كوزيت . آه يا أختاه . عرفيني أين هي كوزيت . سيدي مادلين ابنتي أين توجد .

جافير – (بغلاظة) ألم أقل من آونة أيتها الطائشة أن ليس أحد هنا يدعى مادلين . وما ذاك الذي تبالغون في محبته وتعظيمه ألا هذا المجرم جان فالجان هذا السفاك الذي أقبض عليه (يمسكه من رأسه وينكل به وتشهق فانتين ثم تموت)

سمبليس – يا رحمان . قضي الأمر وانحسرت المرية . واضمحل الريب. انظروا إلى وجهها كيف غاضت بشاشته واستسر بشره وتقلصت طلاقته فيا مصيبتاه قضي الأمر وطوت فانتين بساط حياتها

جان فالجان – (ينبهر جافير ويدفعه بقوة وشجاعة) ويحك أيها القاسي. قد قتلت تلك المرأة التعيسة

جافير – (بخوف) تهيأ . وأتمم فقد أريد أن أسير بك

جان فالجان – (يتقدم نحوه بشجاعة) احذر على نفسك أن تقاومني أو تعارضني الساعة . فابرح هذا المكان والبث بانتظاري خارجا فقد لا أستطيع أن أراك على هذه الحالة القاسية توجه نظرك إلى تلك الأم التعيسة التي قتلتها بفظاظتك . هيا ابرح المكان وحسبك قولي دون فعلي ولا تؤمل جدالي أو مغالبتي . جهلا فتندم إذ لا ينفع الندم

سمبليس – وأنا أيضا ينبغي أن أبرح المكان . انظر يا سيد جافير . (تخرج)

جافير – (يلتفت يمينا وشمالا بخوف) لا مخرج لك من هنا (ينظر من الشباك) على ارتفاع أربعين خطوة . ليس من الممكن أن يهرب (لجان) أهبك دقيقتين

جان فالجان – أخرج (يخرج جافير ويتقدم جان إلى فانتين ويمسك يداها ويقبلها ويركع عندها) فانتين لقد أتيتني متأخرة كما ذهبت مسرعة. فأعدك يا فانتين . أعدك فاسمعي إلى . أعدك بأني ذاهب إلى كوزيت ومرضعها لبان الحرية وجاعلها غصنا من أغصان السعادة وقمرا يضيء في أفق النعيم. أعدك يا فانتين وسوف تعلمين (يقبل يدها) سمبليس سمبليس يا أختاه (يخرج من جيبه ورقة مالية وتدخل سمبليس) خذي يا أختاه في هذه الورقة المبلغ الكافي لدفن هذه الأم التعيسة وإذا ما تبقى منه شيء قهيه للفقراء والبائسين (يأخذ قبعة ويهم بالخروج)

سبمليس – وأنت إلى أين ؟

جان فالجان – أسلمهم نفسي !

سمبليس – أيقبضون عليك . ويحهم (بلهجة) لا . لا هذا محال . فادخل إلى هنا يا سيدي مادلين (تدخل به غرفتها)

جافير – (يدخل مفتشا) ثم ماذا . ليس هنا هذا اللص المحتال (يذهب نحو باب غرفة سمبليس فتقف بالباب في وجهه) أيتها الأخت سمبليس الصالحة . أيا أيتها الملاك الطاهر . أنت المرأة الوحيدة التي مافاهت قط يوما كاذبة فاصدقيني بكلمة من فيك الصدوق . أليس الرجل في غرفتك

سمبليس – كلا !

جافير – نجا . ومن أين (ينظر من الشباك) من هنا أخذ

طريقه إلى السطح

سمبليس – نعم . !

جافير – سنقبض عليه إذا هذا المخادع المجرم الفتاك . (ويخرج صارخا) إلى . إلى أيها الجند

جان فالجان – (يخرج ويركع أمام سمبليس) يا أختاه . بل يا أيتها الملاك المقدس . ليكن كذبك هذا مسجلا في جنات النعيم .

﴿المنظر الثاني﴾

(كوزيت في دار الشقاء)

(يرفع الستار عن طريق في غابة وظلام الليل مخيم . وعلى بعد كأن مجرى من المياه يسيل)

كوزيت – (وحدها وبيدها جرة) أن سيدتي تيناردييه ترى أنه لا ينبغي أن أذهب في الليل إلى الغابة لأحضر لها لبانتها من المياه أما في النهار فهذا من الضروري المحتم . ولكن في ليلة يكثر عندها الضيوف قد يحتم علي أيضا الذهاب إلى الغابة وحمل المياه على عاتقي فآه لك يا ليل يا لباس الشياطين وبرقع المخاوف ما أخاوفني منك . وما أشد حلوكة ظلامك (يأخذ منها الفزع) ما هذا الذي أرى . يخيل لي كأن شخصا هناك بين الأشجار الكثيفة الحالكة السواد وهو مرتد ملابس ناصعة البياض . من هذا . أني أراه يومئ إلي بيده . ويوجه إلى نظره ألحاد فآه . رباه . رحمتك (تقع على الأرض من الهلع) ما هذه المخاوف . لعمر الحق إني لولا أذعنت إليها أعود إلى النزل متأخرة

فيمنا منحت من الزمن وأنال من سيدتي تينارده مزيد التوبيخ والتقريع (تسير) ما أتعس حالي وأشقى مالي . اف من هذا البرد القارس الذي أشعر به كأنه السيوف تقطع جسمي الضعيف ويا ليت شعري كيف أتقي البرد وليس لي من الثياب إلا ما به أستر جسمي وأداري عفافي على أنني لو رفعت عن جسمي هذا الستار المنسحق وهذا الثوب المتسلسل لوجدت الجلد على العظام . فآه ما أتعس حظ الأيتام . (تصل إلى النهر وتملأ الجرة) ها أنا ذا ملأت الجرة وهي ثقيلة على فكيف العمل يجب أن أكون بالنزل سريعا (تجرب الحبرة) أف . ما أثقلها إذا كيف أسير مسرعة وأنا لا أقدر على حمل الجرة . إنها ثقيلة علي ولا يساعدني ضعفي على رفعها ولو بعناء وبلاء وأن أنا أنقصها ولم أطففها . لن أبيت الليلة إلا مكسرة الضلوع . فأف لك يا زمان

فيا قلب صبرا على ما ترى　　　فيا رب حال أتى بعد حال

وبالله يا عين كفى البكى　　　كفاك بكى وكفاني أنحال

جان فالجان – (يدخل وكأنه يجد في طريقه ثم يرى كوزيت فينقلب راجعا إليها ويقبض على الجرة) إيه أنها لثقيلة يا أيتها الابنة الضعيفة فيكف تقوين على حملها ؟

كوزيت – أجل يا سيدي إنها ثقيلة وأنت تشاهد بنفسك عجزي عن حملها

جان فالجان – خففي عنك وهوني عليك . وها أنا أحملها بدلا عنك (يحملها) ولكن إلى أين تتجهين

كوزيت – إلى منتفرمي يا سيدي . إذا كنت تعرفها . وأنها لعلي بعد ربع ساعة من هنا

جان فالجان – أو ليس لك أم ترحمك من هذا العناء

كوزيت – أم . لا أعرف لي أما . بل أفتكر أن لي أما ولا أصدق ونعم الفتيات غيري لهن أمهات . بيد أني ليس لي أم . والذي أعرفه أني خلقت بلا أم .

جان فالجان – وما اسمك أيتها الفتاة الجميلة ؟

كوزيت – كوزيت يا سيدي

جان فالجان – كوزيت . رباه .... ! ومن ذا الذي بعثك هذه الساعة المخيفة من هذا الليل الدامس . ألا خبريني من ذا الذي أمرك بحمل هذه الجرة وهي ثقيلة ؟

كوزيت – سيدتي تيناردييه .

جان فالجان – تيناردييه !

كوزيت – نعم سيدتي تيناردييه امرأة صاحب نزل منتفرمي وربه

جان فالجان – أو ليس لديها خادم يقوم بشؤون النزل

كوزيت – نعم لها خادم . وهي أنا

جان فالجان – وأنت وحدك بالنزل

كوزيت – نعم أنا وحدي فيه . أعني أنني وحدي خادمة . لأنه يوجد مادموازيل إبونين

جان فالجان – ومن عساها تكون إبونين

كوزيت – هي السيدة الصغيرة ابنة مادام تيناردييه

جان فالجان – وما هو عملها بالمنزل

كوزيت – لا شيء سوي التزين والتزخرف بالملابس الثمينة الحلي ثم تمرح وتفرح وكل يظهر لها ارتياحه واحترامه

جان فالجان – طول يومها ؟

كوزيت – أجل طول يومها !

جان فالجان – وأنت

كوزيت – أنا منوط بي القيام بتدبير النزل وشؤونه المتعبة من كنس ورش وطبخ وخياطة وإحضار ماء من النهر بهذه الجرة الثقيلة المحتم على ملؤها تماما

جان فالجان – طول يومك يا كوزيت ؟

كوزيت – بلى يا سيدي وهل تخال أني أستريح لحظة أو أمكث برهة بلا شغل

جان فالجان – (على حدة) آه يا ربي . جافير هذا الرجل الذي يرعبني قد تركته بمنتراي سيرمير ويمكنني الأن أن أخذ كوزيت وأعود بها في أمان نعم إني قادر على ذلك وينبغي أن أسرع في العمل .. ولكن لا . لا . لا . يكون الأمر على هذا الحال (إلى كوزيت) تقولين أن مادام تيناردييه تقيم في النزل

كوزيت – بلا شك يا سيدي .

جان فالجان – أود يا كوزيت أن أتناول طعام العشاء في هذا النزل فهل ترغبين في أن ترشديني إليه وأنا أحمل لك جرتك الثقيلة إلى هناك

كوزيت – بكل سرور يا سيدي المطلع . ولعمري فهذا جل مرادي

جان فالجان – (يأخذ الجرة) هيا إذا دليني على الطريق

كوزيت – من هنا يا سيدي من هنا (يخرجان)

المنظر الثالث

(كوزيت على أبواب الحرية)

(يرفع ستار عن حجرة داخل نزل منتفرمي . والأم تيناردیه تشتغل بغسل الكؤوس وتنظيفها وزوجها جالس مع كلاسكو ومنتبار ناس يشربون)

الأم تيناردیه قد مضى أشهر وأم تلك الفتاة التي ربيناها لا تدفع لنا نفقة الكافة فما عساه جرى . عفوا يا ربي أن أنا أهنت تلك الفتاة الطائشة . إيه يا تيناردیه ليكن في فهمك أني سأطرد كوزيت الغد فتنصرف عني ولا أدعها تدخل بابنا

تيناردیه من الغد لا يكون لنا باب

منتبارناس – أو على الأقل يوجد مفتاح للباب تحت عقبه

الأم تيناردیه – أواه يا سيد منتبارناس ويا سيد كلاسكو . ما أعظم مصابنا وما أشد احتياجنا لألف وخمسمائة فرنك . لنوف ديننا الذي أنقض كواهلنا . ولقد كثرت مطالب مداينينا حتى اتفقوا على بيع جميع ما بالنزل من ابتداء الغد فيا أواه ما العمل (يدخل جان وكوزيت)

كوزيت – رد إلى الجرة يا سيدي الآن

جان فالجان – لماذا يا ابنتي ؟

كوزيت – لأن سيدتي لو عرفت أنك كنت حاملها تكبر لي العقوبة وتفرغ على لعناتها الحادة (يعطيها الجرة)

الأم تيناردیه – (ترى كوزيت) إيه أتيت أيتها الشقية

كوزيت – سيدتي هاك ضيف كريم قد أتى يطلب الراحة والطعام

الأم تيناردييه – هذا هو السيد . فتضل واجلس . أتريد أكلة ونومة ؟

جان فالجان – لا بل آكله فقط

الأم تيناردييه – أي طعام تشهى

جان فالجان – خبز وجبن ليس ألا

تيناردييه – (لصاحبيه) خبز وجبن ليس إلا . وبهذا سنوفي مطالب الغرماء

الأم تيناردييه – (تحضر له طعامه وتجلس كوزيت تحت أقدام جان) هكذا تشتغلين أيتها الفتاة الطائشة . إذا سأريك كيف يكون الشغل . انتظري يا شقية انتظري (تأخذ عودا وتهم بضربها)

كوزيت – (تحار) آه يا سيدتي عفوك . يا سيدتي قد كدني التعب عفوك . أه

جان فالجان – (يوفق الأم تيناردييه) ماذا . ماذا . أيتها السيدة أني أرى على محيا هذه الفتاة دلائل الكلال

الأم تيناردييه – تستريح . لا يا سيدي . إن فتاة شقية كهذه يجب أن تتشرب القساوة

جان فالجان – وهل ترأفين بها لو اعطيتك خمس فرنكات فتدعينها

تستريح ساعة

الأم تيناردیه – خمس فرنكات . إذا فلتسترح طول ليلها وصاحبها

تيناردیه – خذي منه أيتها المرأة الطائشة . خذي منه الدراهم

الأم تينادريه – عجل يا سيدي بها (يدفع لها)

تيناردیه – (إلى جان) أني وامرأتي لا نعرف كيف نرد مطلبا لضيوفنا . فاطلب ما شئت وأمر بما تريد . ترانا على طاعتك فقد تعجل دائما بالنقود . النقود (يذهب إلى امرأته) هات . هات وكوني في خدمة السيد فلديه مطالب كثيرة .

جان فالجان – (لكوزيت) وأنت الآن يا كوزيت حرة . فلا تشتغلي. استريحي يا ابنتي

تيناردیه – (لصاحبيه) أنظرا . أنظرا

كلاسكو – إن عليها صورة وكتابة بارزة

منتبارناس – وليست مزورة . فيا لحسن حظك .. انشرح افرح يا أخي

تيناردیه – وما عسى يكون هذا الرجل يا ترى ؟

كوزيت – أصحيح يا سيدتي . أيمكنني أن أستريح . أنا ؟

الأم تيناردیه – نعم . بما أن السيد يريد ذلك بدراهمه

تيناردیه – كثيرا ما نظرت المتمولين والأغنياء ذوي اليسار يشابهون هذا الرجل . بل هذا السيد يشابهونه خلقا وزيا (لامرأته) قدي له نبيذا وأضيفي عليه الثمن في الحساب (تأخذ الأم تيناردیه لوحا وتكتب)

جان فالجان – (لها) لمن هذه الفتاة . إنها ليست بابنتكم على ما أرى ؟

الأم تينارديه – لا يا سيدي ليسا بابنتنا إنما نحن ربيناها تلطفا بحالها التعيس وكرما منا ، أما أمها فلعمري ليست بامرأة تذكر . فقد تركت لنا ابنتها في أسوأ الحالات . ويجب عليها لنا مائة فرنك . وعلينا يا سيدي دون كثيرة . ولي ابنة أغذوها وأكسوها فهل ترانا بعد ذلك في احتياج لتربية أبناء الناس

جان فالجان – وإذا كانوا يفصلونها عنك لاراحتك

الأم تينارديه – كوزيت ؟

جان فالجان – بلى

الأم تينارديه – والمائة فرنك ؟

جان فالجان – يدفعونها لك حال أخذها منك

الأم تينارديه – إذا كان هذا يا سيدي العظيم . فعجل . عجل وخذها. احفظهالك وسكرها . خللها . كلها وكن سعيدا بها مقدسا في السماء وفي الأرض. فقط تعطيني المائة فرنك

جان فالجان – سأدفعها في الحال ! بعد أن أدفع لك ما يجب على وأنت يا كوزيت خذي هذه الملابس وارتدي بها وكوني في الانتظار (يعطيها صرة ملابس)

كوزيت – حالا حالا يا سيدي . نعم نعم أذهب معك (تخرج)

جان فالجان – كم يجب أن أدفع ؟

الأم تيناردیه – (تعمل الحساب في اللوح) اثنى عشر فرنكا يا سيدي ثم اثني عشر فرنكا

جان فالجان – فليكن

تيناردیه – إنها لتكذب والسيد يجب أن يدفع ست صلديات نعم صلديات

عن الخبز وأربعة عن الجبن ، أما عن كوزيت فلي كلام معك عنها أقوله لك على انفراد (لصاحبيه وامرأته) يجب أن أنفرد بالسيد (يخرجون) ليست كوزيت يا مولاي من الفتيات اللواتي يحصل عليهن بالسهولة التامة، فأعد إليك المائة فرنك واسمع إلى كلامي ، فإذا أردت أن تذهب بكوزيت . إني أكملك بحرية فاسمع إلي واعم أني أحبها وأكاد أعبدها وأن كنت أغذوها وأكسوها رغم أنني مع انحرافي عنها لفقري فقد قلت لك إني أحبها لأنها ابنتي على كل حاول وما رأينا قط أن الأبناء تعطى للمارين هكذا . وأولى لك أن تعرفني إلى أين تذهب بها لكي أزورها من آونة لأخرى على أنك لم تخبرني حتى عن اسمك

جان فالجان – تيناردييه . سأذهب بكوزيت رغم أنف المعارضين وليس لك أن تعرف اسمي ولن تعرفه ولن تتأكد من سكناي ولن تعود تراها مرة أخرى بعد فرارها من وجهك . فأجب أن كنت ترغب في ذلك أم لا . قل

تيناردييه – يلزمني ألف وخمسمائة فرنك

جان فالجان – تيناردييه إني لم تأتني الفكرة في الذهاب بكوزيت إلا وقد قدرت لك كل ما يجب على أمها لك . و إنه لمبلغ مائة فرنك وأنت تطلب ألفا وخمسمائة

تيناردييه – أيها السيد ......

جان فالجان – كفى فليكن . هاك المال . ولقد أجهزة معي وصلا عن هذا الدفع يكون بيدي على الدوام ويمكنني به إذا عارضتني يوما من الأيام أن أقول لك إنك استلمت كل ما يجب لك فدونك الوصل ضع عليه توقيعك (يفعل ذلك) ثم الآن ناد كوزيت

تينارديه – كوزيت كوزيت (تظهر لابسة ملابس سوداء)

كوزيت – ها أنا ذا تجهزت يا سيدي

جان فالجان – هيا يا كوزيت يا ابنتي

تيناردية – عفوا سيدي . قد افتكرت شيأ آخر نسيت أن أذكره لك. فقد لا يمكنني تسليمك كوزيت إلا بإذن من والدتها .

جان فالجان – ثم ماذا أيضا ؟

تيناردية – إني رجل شريف يا سيدي . وهذه الفتاة لم تكن بابنتي ولكني مؤتمن عليها ولا يليق بي تسليمها لأحد غير أمها . أو من يأتيني على الأقل بمكتوب منها بحيث يمكنني الرجوع إليه عند مسيس الحاجة

جان فالجان – لقد نطقت بالحق (يخرج محفظه)

تيناردية – وليعلم السيد أني في هذه الدفعة لا أتنازل عن ألف قطعة من الذهب تكون غناي وسعادتي

جان فالجان – وهذا ما تدعوه الشرف . خذ واقرأ

تيناردية – (يقرأ) السيد تيناردية . إذا أتاك رسولي حامل هذا فادفع إليه كوزيت وهو يدفع لك كل ما يجب علي .... فا . ن . ت . ي . ن

جان فالجان – حسبك ما قرأت وما دفعت لك فاخلي طريقي وعليك السلام (يخرجان) هيا يا كوزيت (تدخل امرأته وصابحاه)

الأم تيناردية – ألا خبرني ماذا أصبت

تيناردية – ألف وخمسمائة فرنك

الأم تيناردية – أصحيح ألف وخمسمائة فرنك

كلاسكو – وأنه لقليل عليه

منتاربناس – أي والله قليل

تينارديه – لقد أصاب ظنكم كبد الحقيقة . كما أصاب عقلي الجنون حتى صرت طائشا أمام هذا الغني المتمول الذي يعد نقوده بالملايين فقد أعطى في بادئ الأمر خمسة فرنكات وأردفها بخمسة عشر فرنكا وعززها أخيرا بألف وخمسمائة فرنك وهو قادر على أن يعطي خمسمائة ألف لو سألنه فآه يا لطيشي . ولكن سألحق به . نعم الحق به . (يذهب إلى الباب يريد الخروج فيقابله جافير داخلا)

جافير – باسم العدالة .. باسم العدالة (يدخل وراءه الجند) قد حضر إلى هذا النزل رجل لتدفعوا إليه ابنة تربونها عندكم

تيناردیه – نعم يا سيدي ولقد طوى كشحه بعيدا عنا من الساعة

جافير – (إلى الجند) ابحثوا في البيت (يدخل من كل صوب)

الجند – (بعد التفتيش) لم نر أحدا بالنزل

جافير – سأفتشه أنا بنفسي (يخرج)

تيناردیه – (لأحد الجند) من عساه يكون هذا الرجل الذي تبحثون عليه

الجندي – هو المسيو مادلين حاكم مدينة منتراي سيرمر وهو صاحب مصنع عظيم ومتمول كبير

جافير – لم أجده هنا .. ولكن سوف أقبض عليه في الطريق فإلي . إلي أيها الجند

كلاسكو – صاحب مصنع عظيم ومتمول كبير

منتبارناس – وقد فرمن أيدينا بقناطيره المقنطرة

الأم تيناردیه – ولكنه سرق منا الفتاة

تيناردیه – يا له من لص فتاك . فآه لو يساعدوني الدهر بالقبض عليه فأسلب منه ماله وأرد لي فتاتي وأصبح متمولا كبيرا وأعد في مصاف العظماء

﴿ المنظر الرابع ﴾

(الهرب)

(يرفع الستار عن طريق به سور بستان دير الراهبات ثم يظهر جان فالجان هو وكوزيت بالطريق)

جان فالجان – آه يا كوزيت أخشى أن لا يجدينا الهرب نفعا رباه أن جافير ورجاله الأشداء يطاردونني مطاردة الأسد لفريسته فآه يا لك من قاس يا جافير ويا لسوء الحظ بعد أن كدت أدنى كأس الحرية من فمي حلت بيني وبين ارتشافه فأف لك يا قاسي . يا عديم الشفقة والحنان

كوزيت – لقد استولى على اليأس يا سيدي فمن هذا الذي يطاردنا

جان فالجان – هو تيناردييه . تيناردييه يا كوزيت

كوزيت – رباه . تيناردييه ذاك الرجل القاسي ألا رحماك أغثني يا سيدي فقد لا أحب أن أرى وجهه . وهيا نفر ونهرب ولنا الله من ناصر ومعين

جان فالجان – كوزيت . كوزيت . قف بهذا المكان ريثما أبحث عن ملجأ يعصمنا من وجه هذا القاسي الجبار

كوزيت – اذهب يا سيدي وفقك الله كل خير

جان فالجان – (يعود) ولم أجد يا كوزيت دويعة إلى بغيتي ولا سلما لمتلمسى

كوزيت – أعدمت الأمل من النجاة يا سيدي

جان فالجان – (ينظر إلى وجهة أخرى) كلا لم أعدمه يا كوزيت فالبثي حتى أنظر إلى هذه الوجهة فعسى أجد فيها ملجأ . البثي مكانك يا كوزيت ولا تستسلمي لعوامل الخوف (يخرج)

كوزيت – رب انصرني ولا تدعني أعود إلى هذا النزل بل إلى هذا السجن .

جان فالجان – (يدخل) ضاع الأمل . عدمناه . نعم يا كوزيت فكل مكان التجأ إليه أجده وعرا ممتنعا لا مطموع فيه ولا ملتمس إليه

كوزيت – آه إذا كتب لنا الشقاء

جان فالجان – إن الفرار لي أنا لعمر الحق أسهل شيء أراه ولكن الهرب بك يا كوزيت في عيني ما أصعبه فآه يا ربي لقد استبهمت على مقاصدي وتضايقت على حيلي

كوزيت – ولم أراك يا سيدي تحمل نفسك على الأخطار و تورطها في مهاوي المالك . فقد أراد الله أن أشقى بالنزل فدعني انطلق إليه وانج أنت بنفسك وشكر الله فضلك ومعروفك هيا اذهب وانج بنفسك يا سيدي العجل العجل . السبق السبق

جان فالجان – كفى . كفى يا كوزيت فقد أتيت من لدن والدتك المسكينة ولقد وعدتها وأقسمت لها أن أجعلك سعيدة . فلن أتركك أبدا ولن أدع أحدا من العاملين يمسك بضرر (يسمع أصوات جافير ورجاله) آه يا ربي ها جافير صاخط غاضب خانق وهو ورائي موجعا في سيره مرهفا في عدوه ورجاله مكفرين في السلاح مقنعين بالحديد وأنا أعزل من ذا وذاك فالبدار البدار لقد أدركونا فما العمل . ضاع الأمل

رباه ويلاه أيقبضون علينا . لا . لا . لا يكون ذلك فهذا السور يمكنني الصعود عليه وانحدر منه إلى البستان ... ولكن كيف أحملك أنت يا كوزيت ومرتقى الحائط ومر عليك . ولكن سوف ينجينا اللّه معا (يصعد على السور ويخلع ردائه وبدليه لكوزيت فتصعد عليه) اقبضي على الرداء بكل قواك يا كوزيت . اقبضي عليه بكلتا يديك (يصعدها ويلصقها به ويمشي على السور) لا تخافي يا كوزيت تشجعي فقد نجونا بحمد اللّه

كوزيت – ها أنا ذا شجاعة يا سيدي

جان فالجان – نجونا والحمد للّه . (يسمع أصوات جافير ورجاله تقترب) سمعا سمعا يا كوزيت قد أتوا . فاصمتي ولا تتكلمي . إلى أن يسيروا في طريقهم

جافير – (يدخل برجاله) ليس هنا أحد ... ولا هنا ... ولا هنا أيضا . إلي إلي يا رجال

جان فالجان – انتظري يا كوزيت ريثما أعرف أن نوجد الآن (بري رجلا قادما) يا للبلاء هو ذا رجل قادم نحونا وينظر إلينا فيا لضياع الأمل سيقبضون علينا . .. فيا ويا لاه (يخرج إليهما فوشلفان)

فوشلفان – من هذا الذي أرى ... وما شأنه في البستان

والليل مخيم بظلامه . (يتأمله) السيد مادلين عجبا أي شيء جرى حتى أوجب ما أرى

جان فالجان – قد عرفتك يا فوشلفان كما عرفت أنت صاحبك القديم فأخبرني لمن هذا البستان وهذا القصر

فوشلفان – هذا هو بستان دير النساء يا مولاي الذي عينتني فيه حارسا

جان فالجان – أقادر أنت على أن تنجي حياتي يا فوشلفان

فوشلفان – (يركع أمامه) عفوك يا مولاي . ها أنا ذا أركع أمامك فمرني أن أنتزع روحي وأقدمها على مذبح نعمائك قربانا فقد نجيت حياتي يوم انقلبت على العجلة وكنت تحتها بين الأمل والموت . فما أعظم سروري اليوم إذ أتيح لي أن أفي ببعض هذا الدين ما مولاي

جان فالجان – كم أنت شريف وكريم يا فوشلفان ما الإنسان إلا هدفا للنوائب وغرضا لسهام المظالم بل هو وديع الغيب ورهينة البلاء لا يعرف ماذا قدر له في غده أهي الأفراح أم هي الأتراح وما ذاك العالم أمامي إلا كالبحر الزاخر قد ارتفعت فيه الصخور العظيمة وتلاطمت الأمواج منكسرة عليها فلم أعرف كيف أجد لي منه مناصا وها أنا ذا أتيتك يا فوشلفان استنجدك واستغيثك في ركن حرير وملاذ منيع

فوشلفان – إن أرض هذا البستان واسعة وداري فيه قواراء فإن شئت أسكنك فيها وإن شئت أجعلك في سويداء قلبي واجعل فتاتك في سواد عيني

جان فالجان – وكيف أمكث معك في البستان

فوشلفان – الأمر هين يا سيدي فاعلم أنهم رغبوا في أخي بطرس فوشلفان ليساعدني في حراسة البستان فأني الحضور فهل لك في أن تدعي باسمه وتمكث معي إلى أن يقدر الله أمرا كان مفعولا

جان فالجان – ولم الرفض وما أشرت إلا بكل خير

فوشلفان – آه يا سيدي ليتني آت بما يوازي سابق نعمك ويضارع فأنت كرمك

جان فالجان – وأنت يا كوزيت اركعي على قدميك وارفعي يديك إلى العلا ونادي يا سماء أشهدي أني صرت حرة في أمان ويا أمي إني أصبحت حليفة الراحة وأمسيت ضحية الدعة (تركع ويسدل الستار)

الفصل الرابع

ـ جان فالجان ـ

﴿ المنظر الأول ﴾

(أحرار الوطن)

(يرفع الستار عن متنزه ببستان لو كسمبورج . كلاسكو وجافير يدخلان وهما سائران)

كلاسكو – وأرجو منك يا حضرة المفتش أن لا تسير على كثب مني وأولى لنا أن نتحادث متباعدين فإن تيناردية يأتى إلى هذا المكان متلصصا من آن لآن وأن الذئب ليشم رائحة الغنم

جافير – (يبتعد عنه قليلا) لقد أخبرتني إنه بينما تكون الطبيعة هادئة والوقت صافيا والنسيم العليل يعبث بأوراق تلك الأشجار فيسمع حفيفها المشجي يخرج جان فالجان متمشيا في هذه الرياض النضرة مرافقا ابنة جميلة ؟

كلاسكو – بلى أنه يخرج إلى هذه الطرق البهيجة مصطحبا ابنة

في ربيع حياتها وميعان شبابها وهي والحق يقال آية الآيات في الجمال وغاية الغايات من الكمال . و إنه لا يلبث أن يخرج معها فترى بعينيك ضالتك المنشودة

جافير – وهل عرفه تيناردیه ؟

كلاسكو – كما عرفته أنا

جافير – وهل تأكد أنه هو عين ذلك الرجل الذي نزل بفندقه منذ عشر سنين مضت وسلبه فتاة استوت على عرش الجمال ؟

كلاسكو – أجل وقد أخذ به . فأن الفتاة التي كان سلبها منه هي هي تلك التي ترافقه اليوم كما خرج للتنزه

جافير – يا حبذا لو كان هو غريمي المنشود . بيداني أشم من كلامك رائحة الباطل وأكبر ظني إنك واهم . فإن جان فالجان اختفى عني أنا المدعو جافير منذ شهر مارس من سنة ١٨٢٢ ونحن الآن في الخامس من يونيه سنة ١٨٣٢ أي إنه قد مضت عشر سنين كاملة فر هذا الرجل الجسور من الشرطة بل من جافير رئيسها . فإين كان مختفيا . لا . لا يا كلاسكو لا أخالك إلا واهما وجان فالجان قد طوى بساط حياته ولم تخطئه مماته .

كلاسكو – إذا حدق ببصرك إلى هذين القادمين وانظر إليهما بمجامع عينيك (يشير إليه فينظر) هذا هو غريمك وفتاته فهيا نختفي في مكان حيث نجتليهما بالنظر ولا يريانا (يخرجان ويدخل جان فالجان وكوزيت ويتبعهما ماريوس على بعد وه ويتأوه من آن لآن)

جان فالجان – إني أرى وجهك الصبوح يا كوزيت قد استسر بشره وغابت طلاقته فكأنك طويت بساط أنسك

كوزيت – أنا يا أبتاه بصحبتك على خلاف ما تقول ولعمري لا شيء يشغلني حتى يحولني من الأنس إلى الكدر (تنظر إلى الوراء فترى ماريوس يظهر لها مكتوبا) آه ما أسعدني وما أحيلي هذه الأوقات فإنها لعمرك يا أبتها غرة في جبين الدهر وإني لأستنشق نسيم الحرية والسعادة بسرور وارتياح أشعر بهما في هذا النعيم الذي أنا غارقة في بحاره . بيداني يا أبي قد راعني شيء واحد . أخشى من ورائه الويل . ذلك أن لو كسمبورج تلك الحديقة الغناء . التي طالما شاهدت فيها نضارة وبهاء قد تصوحت زهوتها وخمد بهاؤها وتقاطرت بها الناس زرافات ووحدانا في الطرقات والأزقة خلافا للعادة . فهل لك يا أبي في أن تطلعني عن منشأ هذا الخلاف

جان فالجان – بالحقيقة يا كوزيت إني لا أعرف لهذا الخلاف منشأ. على أنه ليس بالخطب اليسير وكأني بؤلاء القوم يقيمون حربا عوانا . ولكن ما لنا ولهذه الحوادث ما فتئنا في نعيم دائم وسرور مستمر (يخرجان وهما سائران وماريوس يتبعهما دائما ثم يظهر كلاكسو و جافير)

جافير – لقد صوبت فيه طرفي . وحققت النظر إليه . فإذا بي أرى شيخا فانيا مشرفا على آخريات أيامه . ولكنه أشبه بطريدي من التمرة بالتمرة ومن الليلة بالليلة وإنه لبماثله تماما في اللهجة والأخلاق والخلق والمشية وآخر ظني به أنه هو جان فالجان . فلأثر إذا عليه عدائي الذي حفظته له في صدري من سنين مضت تجرعت في خلالها من كؤوس الغل ألوانا

كلاكسو – ومما يكثر من فرحك فرحا ويزيد في الطين له بلة إن تيناردیه صاحب نزل منترمي قد عمل اليوم على كيده فاتفق هو ورفاق

له وأنا أحدهم على إمساك صاحبنا هذا وسلبه مبلغا من النقود وافرا . ولا غرو فلا إخالك ألا سمعت بإفلاس تينادريه والحجز على نزله وطرده منه قهرا حتى أصبح لا يملك شروى نقير وليس له ثمت رجاء في العيش إلا إذا سلب هذا المتمول العظيم ما له كما سلب هو منه فتاته

جافير – ألا خبرني منى تصح عزيمتكم على إتمام هذه الفعلة ؟

كلاكسو – اليوم بيد إني أجهل الساعة

جافير – اليوم . اليوم . ؟

كلاكسو – أجل وإنها لمن أثمن الفرص . سنحت لنا والشعب في هياج طلبا للحرية . وآمل أن نكون من الفائزين . فأنا أشد أقوياء ولسوف تقع مكيدتنا على الرجل (ينظر إلى الخارج) دونك تينادريه آت . فأخرج أنت الآن

جافير – وأين أراك بعد ذلك ؟

كلاكسو– في شارع البانيير (يخرج جافير ويدخل تينادريه وأبنته إبونين)

تينادريه – هذا هو أنت يا كلاكسو (ينظر إلى ابنته) أفهمت يا أبونين

أبونين – نعم يا أبتاه

تينادريه – إذ ما أتى السيد وفتاته وجلسا على هذه المقاعد كعادتهما فأخرجي إليه وأعرضي عليه مكتوبي بلطاقة ورشاقة وأدخلي عليه الحيلة ما أمكنك

أبونين – ليكن ما تشاء يا أبت (تخرج وهي تخطر)

تينادرديه – وأنت يا كلاكسو . أفهمت . سوف تتم حيلتنا ويسعفنا الدهر بمرادنا حيث قد أسفرت آمالنا عن وجوه الفوز . ثم لتعلم إني

صرت ورفاقي . على موعد الاجتماع في هذا المكان بعد زمن يسير لننظر فيما سنجربه من الأعمال . لنتمكن من إمساك سارق فتاتي بمنتفرمي . ويا صاح إني أشعر بشيء يطمئنني على فوزي به ولا جرم إني سأحصل منه على مال عظيم ولا أكون طائشا في هذه المرة يا كلاكسو

كلاكسو – وهل أنت متأكد من حضور غريمك في بيتك ؟

تينادرديه – أجل سوف يحضر بمنزل جوندريت الرجل البائس صاحب الأسرة الفقيرة

كلاكسو – ومن عساه يكون جوندريت . . . أأنت هو ؟

تينادريه – بلا هذا اسمي الذي اخترعته إتماما للحية ويا ليت شعري يا كلاكسو ألست في الحقيقة بائسا مذ ؤزئت بموت امرأتي التي كانت وحدها غناي وسعادتي . آه إني أمسيت بعدها في بؤس العيش اغذو ولدين لا إخالك تجهلهما (ينظر حوله) أين ذهبت إبونين . . . ها هي هناك . عرفت قصدها. فإنها ذهبت ولا شك تبحث عن ماريوس

كلاكسو – ومن عساه يكون ماريوس

تناردیه – ألا تدري من هو فيا لجهلك يا كلاكسكو . إنه عشيقها وحبيبها الذي تفديه بمهجتها

كلاكسو – هذا عجيب منك يا تيناردیه . فكيف ساغ لك إن تتركها تعشق وتهوى بلا حساب ولا عقاب

تيناردیه – إنها أحبته حبا لا حصر له . فقد أسكت فيها كل عاطفة وطالما رأيتها تئن وتتهد تهدات حارة وهي تلفظ باسمه الذي إخاله كتب على صفحات قلبها بأحرف من نار هيهات ثم هيهات لها أن تمحي . وكنت كلما شاهدتها على هذا الحال أسألها السبب . فهل تدري ما كانت تجيبني به ؟

((إني أحبه يا أبت وأكاد أعبده وأود لو أنال منه قبله اطفي بها لهيب نار تزكو بين ضلوعي))

كلاكسو – وبهذا تم الغرام . فهيا دعنا من هذا الكلام . فإن الرجل قد أقبل هو وفتاته (يخرجان ويدخل جان هو وكوزيت وتتبعهما إبونين)

جان فالجان – نعم يا كوزيت أشاهد في لوكسمبورج حركة غريبة وكل باريس في هياج . وجلبة أصوات مخيفة . . بيد أن أمرها لا يهمنا يا كوزيت فقد لا ينالك سوء والله شاهد . . هيا هيا اطرحي عنك هذه الأوهام وتلك الخزعبلات واجلسي على هذا المقعد نأخذ لنا جنبا من الراحة (يجلسان وتتقدم إبونين وتعطيه الجواب) .

إبونين– عفوك يا سيدي المحسن الذي طالما مد يده الكريمة لمساعدة الفقراء وإغاثة البؤساء ، أتتنازل يا مولاي العظيم بقبول هذا المكتوب الحقير من يد فتاة تعيسة ألقي عليها الفقر مراسيه وشد أواخيه ومالها سواك من نصر ومعين ؟

جان فالجان – لي أنا يا ولدي

إبونين – أجل يا مولاي ، وهو من والدي الذي أصبح عاجزا عن قضاء ليلته من مأكل وملبس (يأخذه منها جان ويقرأه) .

كوزيت – يالها من فتاة ينم وجهها على عراقتها في الفاقة يا أبتاه .

إبونين – (على حدة) عجبا لكوزيت خادمتي القديمة قد صارت جميلة وشريفة .

جان فالجان (يكون قد أتم مطالعة المكتوب) أن أباك المسكين يخبرني في كتابه أنه يعاني ألم مرض عضال نزل به فجعله في حالة يرثى لها

على أنه في بؤس العيش وضنكه يغذو ابنين هما أنت وأخوك .

إبونين – أجل يا سيدي ، فإن الحرفة التي كان يزاولها أبي التعيش الحظ قد كسد سوقها ونزلت به الضيافة يتبعها المرض حتى حضره العوز فطلب الإحسان من بني الإنسان فلم يصادق كريما يرحم أو يحابي أجل قد تحولت يا سيدي قلوبهم وأفئدتهم إلى صخور لا تستطيع الرحمة إليها سبيلا حتى أصبح أبي مهبط الفاقة ومنقطع الإحسان اللهم إلا من كريم واحد لم يقنط أن يجد محركا من كرمه ومحاسبا من نفسه وهذا الكريم هو ذاك الذي أسعدني الحظ بأن أكون ماثلة أمامه في ذي الساعة ... فليتصور سيدي أسرة بلا قوت ولا ساتر ولا مأوى سوى بيت هرب غير ذي سقف تضرب فيه الرياح وذلك المريض يفترش الأرض ويلتحف الثرى والجوع هاجم عليه بأنياب حادة كسيوف مرهفة والبرد ضارب عليه يجرانه فآه يا سيدي لو كنت تتنازل بزيارة هذا البيت وعيادة ذاك المريض إذا لترى بعينيك البؤس مجسما والشقاء ممثلا (يتأثر جان) .

كوزيت – حبذا لو ذهبت بنفسك يا أبتاه

جان فالجان – أجل يا كوزيت سوف أذهب بنفسي وأزرع في صدر هذا البائس جنة من النعيم .

إبونين – آه يا سيدي لازلت للفقراء والبائسين بدرا يتوهج بنوره ويتألق في سماء الإحسان يسيرون بهديه ، فأبقاك الله ثم أبقاك (فهم بالخروج) ولكن عفوا يا سيدي لم تكرموا بأخباري عن ذاك اليوم الذي تتنازلون فيه علينا بالزيارة وإنك لأدرى ممن يعرف تأثير الجوع والشقاء هما في بني الإنسان فحبذا لو كان اليوم .

جان فالجان   ولم لا فليكن ذهابي إليكم اليوم .

إبونين – وفي آية ساعة يا سيدي تشرفنا .

جان فالجان– عند مقترب الساعة السادسة رغما عن أشغالي المهمة فتأكدي وتيقني من حضوري عندكم في الأجل المضروب .

إبونين– ما أطيب نفسك وما أشرف قلبك وإني لأشعر الآن كأن حملا ثقيلا من المصائب قد زحزح عن عاتقي ولا غرو فأنت وحدك حقيق بمؤاساة البائسين (تنحني وتخرج) .

كوزيت – لعمرك يا أبت لقد صدقت هذه الفتاة وأنت وحدك خليق جدير بمؤاساة البائسين .

جان فالجان – أي كوزيت إذا كان لدى الإنسان من الخيرات ما يكفيه حاجه ولباناته حتى وزيادة فما ضره لو أعطى بطيبة نفس من زياداته إلى هؤلاء المساكين المحتاجين الذين يموتون من الجوع وهم معتلون ، وقبيح لعمري بالإنسان يتنعم بالخير الكثير ويبخل أن يقسم ما رزقه الله فيحظى بشطر ويحسن بالشطر الآخر على أخيه ولعمرك يا ابنتي أن هذا العمل لا يقصد به محض الإحسان ولا يخرج عن أن يكون الواجب ، لعم الواجب الإنساني يا كوزيت .

كوزيت– والعمل الذي أجريته من أجلي أنا يا أبت . ماذا يقصد به .

جان فالجان – ه يا كوزيت أن هذا ليس بإحسان أو كرم أو جود ، كلا فليس هذا ما كنت أرجوه وإنما هي السعادة ، السعادة يا ابنتاه ، ولقد نلتها بمحبتك لي واحترامك إياي نعم فقد أظهرت لي من المحبة والشفقة ما يعجز لساني عن ذكره وأضيق ذرعا عن حصره ، فقد مكنت في دير النساء مريضا أعاني مصابي وأتحمل أوجاعي ، وكم كنت ذات حنان وإشفاق علي ، وطالما حرصت على راحتي ولم تزعجيني

واعتنيت بي بقلب خالص ونية سليمة ، ولقد خبرت منك ذلك يوم كبر المصاب بي وانطرحت علي فراشي وأنا لا أدري أفي حياة كنت أم في ممات ، على أنها كانت نوبة شديدة أفقدتني رشادي برهة وجيزة بيد أني تناومت لاختبر محبتك لي وإشفاقك علي وإذ أنا كذلك رأيتك تدخلين على أطراف أصابعك خوفا من إيقاظي ظنا منك أني كنت غافلا وسمعتك تتأوهين وتتحسرين حتى قطعت نياط قلبي فآه يا كوزيت ما أطيب قلبك ويا ليتهم لا يفصلونني عنك ولا يبعدونك عني .

كوزيت – ما سمعت من قبل هذا أن الأبناء يحرمون من مصاحبة آبائهم .

جان فالجان – ولكنني لست أبا كؤلئك الآباء (يقومان ويخرجان ويظهر ماريوس وهو يشيعهما بنظره) .

ماريوس – (ينشد وهو حزين كئيب :

لا الصبر يسعدني ولا السلوان   فآلام قلبي مغرم ولهان
أشكو الغرام إلى التي سفكت دمي   شكوى فتى لعبت به الأشجان
وأقول يا غصن القوام تعطفا   نحوي فيأبى لحظتها الفنان
ياللهوى ما كنت أعرف ما الهوى   حتى دعاني طرفها الوسنان
هي نظرة فصبابة فزيارة   فوشاية فتدلل فهوان
أسرت فؤادي في يديها والهوى   شرك يصيد الليث وهو جبان
زعم العذول بأنني عن حبها   أسلو وليس لزعمه برهان
إن صح ذاك فما لنار جوانحي   تذكو ودمعي مسرف هتان
من كان مثلي في الصباب والهوى   مضني الفؤاد فهل له سلوان

آه يا لشقائي ، ويالقساوة قلبك يا هذا الشيخ ، حرمتني محادثة

فتانك التي استولت بمجامع قلبي وفتكت بي لحاظهت ، فآه يالعذابي ولكن ينبغي علي في كل حال من الأحوال أن يصل إليها كتابي هذا ففيه السعادة أجل فيه سعادتي (ويدخل لفيف من أحرار المتطوعين وهم ينشدون) .

الأحرار أيها الأبطال هيا نحن أنصار الوطن

موسم الحرب تهيا يا لأحرار الوطن

جنة الأعداء فناءولتدم نار الوطن

قيمة الأوطان روح في رضاها تبتذل

والوغي إما فتوح أو غبوق أن نزل

أيها الأبطال هيانحن أنصار الوطن

أحدهم – أيه يا مارويس ، إلى التطوع ، التطوع يا هذا الشريف .

آخر هيا انضم معنا تحت لواء الحرية .

ماريوس – ما أجهلني بالذي جرى . أو سيجري

الأول هذا عجيب منك يا صاح ... أما سمعت النداء العام للتطوع والانضمام إلى جيش جرار يخفق عليه علم الحرية

آخر أجل – فقد آذوا الشعب جميعا يا ماريوس حتى عم الخوف واستفاض

آخر ونهبوا ثلاث حوانيت وأضرموا النار في عشرة أخرى

آخر وما أدراك بحال النساء والصغار فالكل في هياج وصياح

ماريوس – آه يالشقائي – أني أتألم وكأني لم أخلق إلا للألم

الأول وإخالك سابحا في بحار الغرام ؟

ماريوس وغارقا فيه تلعب بي الأمواج

الأول أعلمتنا يا ماريوس بأنك أكدت عزيتمك على مقابلة من تدعوه حبيبتك والدا لها فما عساه كان في جوابه لك

ماريوس – رماني بالجنون وردني خائب الأمل

أحدهم – ضاع الوقت والله بين هذا الغر وهذا العاشق

الأول عفوك أيها الرفيق دعني أحادثه هنيهه واحدة ثم نسير بعدها جميعا ويد الله معنا (إلى مازيوس) وما عساك فاعل ؟

ماريوس– إن وجهة آمالي وحديث أحلامي هو توصيل هذا المكتوب بين يديها

الأول وبعد ذلك ؟

ماريوس – وبعد ٠٠٠

الأول إيه ماريوس إنما نحن ذاهبون لنصون حوزة الوطن ولنناضل عن ذماره فقد احتدمت ثار الحرب واستعرت وصمت الآزان من دوي المدافع وتكافح الأبطال وأقبلت الآجال تفترس الآمال

آخر وإن دمنا الزكي الذي يهدر من أجل الوطن سيكون تذكارا لمجدنا

ماريوس– ولعمري أن الموت أحب لي من الحياة ٠ وإني لأعدكم جميعا بأني سوف أنتظم معكم وأهدر دمي ضحية لوطني وعشقي وغرامي فقط بعد توصيل هذا الخطاب فهل أنتم مصادقون لي على رأيي

الجميع– كن كما تشاء (وينشدون نشديهم وهم سائرون) .

أيها الماضون عناهنئوا تلك الجدود

وألى يورون عنا ذاكرونا في الوجود

نحن قوم حيث كنا نصطليها أو نسود

موسم الحرب تهيا * بالأحرار الوطن
جنة الأعدا فناء * ولتدم نار الوطن
كانا فيه فداء * عيد تذكار الوطن
أيها الأبطال هيا * نحن أحرار الوطن

ماريوس– ينشد (بعد خروجهم)

وما في الأرض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا في كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي أن نأوا شوقا إليهم * ويبكي إن نأوا خوف الفراق
فتخسن عينه عند التنائي * وتسخن عينه عند التلاقي

إبونين – (تدخل بلهفة) آه يا ماريوس أنت هنا تجزع غصص الكرب وتعالج برحاء الهموم

ماريوس – من أنت وما شأنك ٠٠ آه إبونين

إبونين – الحمد لله لقد عرفتني ٠ فعساني أجلو عنك همك وأفرج من كربك فعزيز علي أن أراك بحال سوء

ماريوس – لا أجد في كلامك عزاء فدعيني امتعض حسرة وتندما

إبونين – ألا تذكر أيها الحبيب أنك رغبت مني معرفة عنوان فتاة جميلة ؟

ماريوس – وهل أتيح لك عرفانه ؟

إبونين – بلى وأنها تقيم في منزلها مع أبيها الشيخ

ماريوس – لقد وعدت الآن أن تبعدي حزني عني فهل ترغبين في إتمام وعدم

إبونين – ياللسعادة إن هذا لعمري ما أرجوه لك

ماريوس – وهل توصلين مكتوبا إلى يدي تلك الفتاة .

إبونين – أتكتب لها ٠٠ ؟

ماريوس – دعي عنك هذه الغيرة ودونك المكتوب ولا تجعلي في فؤادي مجالا للريبة في إخلاصك

إبونين

عاهدت قلبك لا يخون فخانا   وظننت هجرك لا يكون فكانا
وحلفت أنك لا تطيع عواذلي   أفهل نسيت بصدك الإيمانا
بالله ما ذنبي إليك وما الذي   بعد الرضى يستوجب الهجرانا

ماريوس

ما كنت أعرف ما الغرام وما الهوى   حتى رأيت جمالك الفتانا
ورأيت في عينيك ألحاظ الظبى   ورأيت فوق خدودك النعمانا
ولقد رضيت بما رضيت من الجفا   فكفى كفى لا تطلبي برهانا
مذ حاد بي الهجران عن سنن الوفا   لم يلق في قلبي هواك مكانا
فعشقت غيرك والفؤاد مروع   فلم اتبعت مع الهوى العصيانا
هل ترتجين الصدق في عهدي وقد   أضحى جزاؤك عندي النسيانا

إبونين – سأمتثل لك وأعمل بما تريد فأعطني الخطاب

ماريوس – بيد أنه ينبغي لك أن تختلسي فرصة غياب الأب

إبونين – إن الأب ضرب موعدا وسأنتهز وقت غيابه لمقابلة فتاته

ماريوس – أي إبونين إن فيما يصفه لي جميل الظن بك وما يبعث عليه حسن التقدير فيك إنك تفوزين بمصداق آمالي وتعودين بجنح آمالي

إبونين – وهل يخالجك ريب في ذلك (تأخذ بيده ويسيران ثم

يدخل تيناردیه ورفاقه)

تيناردیه – أنتم ثمانية شياطين

أحدهم – وأنت إبليسنا

تينادریه – نعم وقد جمعنا هذا المكان لنتآمر على إمساك سارق فتاتي بمتنفري هو وإياها فأما أنت يا مونتيارناس يا أيها الذئب ويا بريجون يا أيها الضبع فعليكما بخطف الفتاة وحدكما القادران على ذلك وأما أنتم يا باقي الرفاق فعليكم الانتظار في منزلي حتى يضع ضالتنا نفسه بنفسه في الفخ الذي نصبناه له ثم لتعلموا أن الرجل من ذوي الشجاعة والبسالة والإقدام ففي الساعة السادسة يقع في أيدينا ولا يعيننا على إمساكه إلا اجتماع قوانا وإن يد الله مع الجماعة فهل أنتم مطابقون لرأيي

الجميع أجل ومشايعون على إتمامه

تيناردیه إذا هيا (يخرجون)

﴿ المنظر الثاني ﴾

(عسر ويسر)

(يرفع الستار مظهرا حجرة في منزل تيناردیه وفي وسطها منضدة وتدخل إبونين يتبعها ماريوس)

ماريوس – أي إبونين عزيزتي تقولين إنك أتيت بكتاب منها

إبونين – نعم يا ماريوس وما هي إلا رسالة قد خطت عليها كلمة واحدة دونك إياها (تعطيه الورقة)

ماريوس (يقرأ) احضر ٠٠ (ينشد بفرح)

يا قلب أبشر فالحبيب تعطفا * وعليك جاد بما تحب من الوفا

جاء الرسول مبشرا بوصاله * بعد الصدود فما أرق وألطفا

(ثم يخرج مسرعا ويدخل على أثره جان فالجان)

جان فالجان – أنت هنا أيتها الفتاة وهل تعرفين هذا الفتى الخارج من هنا الآن

إبونين – بلى هو جارنا السيد ماريوس

جان فالجان – ياله من فتى غر اقرأ في وجهه أسطر الويل والبلاء ولكن أين أبوك التاعس

إبونين – إن أبي لا يعتم أن يخرج إليك ولكن يا سيدي كيف غادرت ابنتك وهل هي في البيت وحدها

جان فالجان – بلا ريب

إبونين – أما تخشى عليها مكروها من هذا الفتى الذي يرعبك

جان فالجان – أراك تصدقين ولسوف أعجل بالذهاب إليها (يدخل تيناردييه وهو يشير إلى ابنته بالخروج) مسيو جوندريت

تيناردييه – أجل يا سيدي أنا هو ذاك تفضل بالجلوس

جان فالجان – اعفني منه فإني مسعجل الأوبة لأمر يهمني (يخرج له قطعتين من النقود) خذ يا أخي هذا المبلغ القلي فاقض به حاجياتك الضرورية وأرجو منك أن تسلني غيره إذا نفذ ثم لتسمح لي الآن بالعودة

تيناردييه – قطعتان من الذهب ما أكثر جودك وكرمك (يدخل رفاقه ويصطفون فيرتعب جان) والآن يا سيدي أعارف أنت من أكون

جان فالجان – لا وحقك

تيناردیه – هو ذا أنا أدعي تيناردیه وليس جوندريت كما أعلمت وأنا أنا صاحب نزل منتفرمي ولا أخالك تجهلني

جان فالجان – وماذا يهمني من أمرك

تيناردیه – ألا تهتم بأمري أو لم تكن ضيفي في نزلي منذ عشر سنين أو ليس أنت دفعت إليه كوزيت ابنة السيدة فانتين حيث قد سلمتني ألف وخمسمائة فرنك أفبعد هذا لا تهتم بأمري

جان فالجانبلي ، ولتعلم أن كأس التملق والخداع التي أدنته يد مطامعك من شفتيك سيكون في فمك سما ناقعا ، على أني يا هذا قد حسبتك فقيرا جائعا عطشان فأسرعت إليك أحمل الإحسان فإذا بي أرى أمامي شيطانا في صورة إنسان فكفى ثم كفى بعد أن أصبحت في نظري لصا محتالا

تيناردیه أتدعوني لصا محتالا وما ظنك إذا بذاك الرجل الذي يدخل الفنادق مرتديا بزي الأشراف ويسلب الناس أبناءهم ألا خبرني بحققك أليس هو ذاك الحقيق بأن يدعي لصا والخليق بأن يكون محتالا ولكني أراني أطلت معك الكلام ونسيت أن أذاكرك في الشيء الهام فخفف عنك وهون عليك فاليوم لا تبخل علينا بشطر من قناطيرك المقنطرة

الجميع – بلى فليعجل بالمال

جان فالجان – لقد طمعتم في غير مطمع وكدمتم في غير مكدم فلا تظنوا أنكم قاضون لماستكم ونائلون لبانتكم فإليك أيها اللئام (ينحدر عليهم كالأسد فيصعر اثنين ويتطلع إلى النافذة يريد الولوج منها

فيوقفه الباقون ويقيدونه)

تيناردیه – أحرصوا عليه ولا تؤذوه ثم فتشه يا كلاكسو

كلاكسو – كيس دراهمه (يمد ما به) قطعة واحدة من الذهب وثلاث فرنكات وأربع صلديات هذا هو ما مال الرجل المتمول صاحب الغني الوافر والثروة الطائلة

تيناردیه – عجبا أليس معه محفظة

كلاكسو – ولا ساعة ولا كتينة ولا خاتم

تيناردیه – إنه ليدري من أين تؤكل الكتف (يتقدم إليه) أيها السيد لقد كنت محقوقا في فعلتك حيث أردت أمن ترمي بنفسك من النافذة ونسيت أنك كنت لا تقوم من سقطتك إلا مكسر الضلوع فاشكرني حيث قد منعتك عن إتمام عملك ولم أدعك تدفع بنفسك في مهاوي هذا الهلاك ثم لنتحدث الآن بأمان فاسمع إلي لا جرم أنك متمول عظيم وعندك من الأموال ما لو أردت حصره لصقت ذرعا ولذا لا أطمع في الحصول عليه بحزافيره ولكني أكتفي منك بمبلغ لا يتجاوز مثنى ألف فرنك فقط وأني لا أغرب منك في أن تعجل بالدفع فلا غرو أنك أمسيت في أيدينا ولا تملك شروى نقير بيد أني أكتفي بتوقيعك على وصل صغير (يقدم له الورق والحبر والقلم) ودونك القرطاس واليراع والمداد فاكتب ما أمليه عليك وأنت في أمان

جان فالجان – وكيف أكتب وأنا موثق اليدين

تيناردیه – أحلل له وثاق الساعد الأيمن فقط يا كلاكسو (يمليه) اكتب: يجب علي دفع مثنى ألف فرنك للسيد تيناردیه عند أول فرصة يطلب فيها حضرته هذا المبلغ (يراجع عليه ما كتب) أرخ

ما كتبت ثم ضع توقيعك (يأخذ منه الورقة) بطرس فوشلفان هذا هو اسمك الحالي (يطوف بالورقة على رفاقه الستة وفي هذه الأثناء يقترب جان من المنضدة ويأخذ سكينا يقها بها وثاقه) ثم لا تخال بأننا نكتفي منك بهذه الورقة الصغيرة فقد أجمعنا العزيمة وأخذنا منك وديعة ورهينة

جان فالجان – وما عساك فعلت ؟

تيناردیه – قد ذهب منذ ساعة اثنان من رفاقي الأقوياء إلى دارك لخطف الفتاة ووضعها في مكان أمين لا تصل إليه القدم ولا تلمسه اليد إلى أن تفي لنا بما طلبناه منك

جان فالجان – كوزيت .. الويل ثم الويل لكم يا فجرة يا غدرة (ثم إنه في طرفة عين يضرب المنضدة فيقلبها ويقف أمامهم مشهرا السكين) ووالله إن يكن الشيطان قد استفذكم بغروره واستغنوا كم يختله فلا والله لن تعلو كلمتكم علي ولن تناول مني مأربا

الجميع – فليمت هذا الخائن فليمت (يهمون فيدخل جافير ورجاله فيصياح)

جافيرباسم العدالة ٠ باسم العدالة إليكم يا قوم سمعا إلي ذلك اليوم الانتقام العدل فمن شاء اتخذ إلى طاعتي سبلا يا قوم أنتم ستة ونحن خمسة عشر على أني أنذر العاصين منكم عقابا قريبا يوم يجدون أنفسهم في أعماق السجون مثقلين بالأغلال والقيود فيصيحون أواه يا ويلاه ويقولون يا ليتنا أطعناه (كل اثنين منهم يقبضان على واحد) أحسنتم سيروا بهم هم مساء يا سيد تيناردیه عم مساء يا سيد كلاكسو عموا مساء يا باقي الرفاق الأشقياء (يخرجونهم وبهم جان

فالجان الذي لم يقبض عليه فيوقفه) الأعم مساء يا سيد جان فالجان قف يا جان ما بالك قد اضطرب فأنا ذا جافير القدم السمج أنا ذا جافير الثقيل الروح والوطأة أنا لروحك حمى ولقلبك أذى أنا لصدرك شجى ولعينيك قذى أنا ذا جافير الذي تجهمي أحسن من بشاشتي وتكلحي أحسن من ابتسامي أنا ذا جافير أثقل ما أكون إذا تلطفت وابغض ما أوجد إذا تحببت فما عساك واجدني قد لبست وفررت مني في منتراي سيرمير وطاردتك في منتفرمي فلم أفلح حيث قد خفيت عني ولم أبرح أفتش عليك صباح مساء حتى زعمت أنك ذهبت إلى الجحيم وبئس المهاد وحسبتني انتقمت منك انتقاما أصعدني إلى ما فوق السماك فإذا أنت حي وفي قبضة يدي فاليون يا جان لا تخال إن قوة بشرية تقدر على أن تحيي ما أمت لك من آمالك

جان فالجان (بخشوع) جافير ...

جافيرنعم أنا جافير ذلك الرجل الذي تود الموت دون رؤيته

جان فالجان

لا أحسب الشر جار لا يفارقني ❊ ولا أحزن على فاتني الودجا

وما نزلت من المكروه منزلة ❊ الله ونفت بأن ألقى لها فرجا

(يدخل أحد رؤساء الأحرار المتطوعين)

الرئيس – باسم الحرية أدعو كل شريف حر

جافيرحسبك حمقا يا هذا وأبرح هذا المكان

الرئيس – أعلم أن الشعب في هاج وتحت إرادتي لفيف عظيم من الأحرار

جافير – وهل تزعم أن هذا يقل من عزيمتي

الرئيس – أهكذا نطقت ... إلي إلي يا أحرار الوطن (يدخل المتطوعون إلى جان) أيها السيد الشريف لتعلم إنك منذ الساعة حر تفعل ما تريد (إلى جافير) وما أنت فاذهب من حيث أتيت فإن الحرية لا تقبض على أحد ولا تهين أحدا

جافير آيا يا جان سأفترق عنك لزمن أسال الله أن يكون قصيرا وليكن في فهمك إنا شخصان لم يكتب لهما الافتراق فما فتت ممثلا لناظري وجائلا في ضميري ولسوف أراك (يخرج مسرعا)

الأحرار – أيها الأبطال هيا ❊ نحن أنصار الوطن
موسم الحرب تهيا ❊ يا لأحرار الوطن
جنة الأعداء فناء ❊ ولتدم نار الوطن
كلنا فيه فداء ❊ يا لأنصار الوطن

﴿ المنظر الثالث ﴾

(عهاد الهوى)

(يرفع الستار عن هيئة بستان منزل كوزيت وإبونين تتمشى ذاهبا وجيئة وقد أخذ منها القلق)

إبونين آه يا لقساوة قلبك يا ماريوس قد أتيت لكوزيت تطارحها الغرام وتبثها تباريح الهوى وتركتني وحدي انقلب على لظى الهيام على أني لا أمتنى إلا أن أراك وأسعد بلقياك وكل ما تفعل مليح في نظري وها أنا أفرغ جهدي وأنضى استطاعتي في مرضاتك (يدخل

الاثنان الاتيان لخطف كوزيت) منتبارناس ويريجون أتيتما آه يا ويحكما

منتبارناس – لا أخال إلا أننا قد أتينا متأخرين (ينظر إلى رفيقه) وكم من مرة قلت لك عجل عجل وأنت مهمك في الشرب حتى سكرت فما أكثر حمقك وجهلك بالأمور

بريجون – (وهو يتطوح) فلنسرع إذا أين هي الفتاة

إبونين – مالي أراك ثملا يا برجيون ولا أظنك إلا كذلك يا منتبارناس وإني لأراكما استهونتما فتاة ضعيفة ولم تعلما أنها لا تمكث وحدها

منتبارناس – ربما كان معها خادمها

إبونين – كلا فليس هذا عنيت

بريجون – إذا معها كلبها وهذا لعمري لا يصعب لنا المسالك فقد أحضرت معي رغيفا وسأرمي به إليه فيخلي لنا السبيل

إبونين – وليس هذا عنيت أيضا فلا يوجد عندها كلب إنما معها سيد فاضل

منتبارناس – إن من يتعرض لنا في فعلتنا أقل ما يناله منا الموت

بريجون – وهل نخشى كلانا رجلا واحدا

إبونين – وهل نسيتما إني أنا هنا أيضا فقد عرفت ما أضمرتماه لها من السوء وما قد نويتما فعله الليلة بيداني أحذركما من أن تموسها بضر وأنا لها من الناصرين وحسبكما ما أخبرتكما فأغربا عني وكونا لي من المطيعين

منتبارناس – إني لم أعهد فيك هذا الحمق والجهل

بريجون وكذلك أنا لم يخطر ببالي قط أن أرى منها مثل

هذا الطيش

إبونين – إني أنصح لكما بأن تعودا من حيث أتيتما فإن الطريق العام على كثب من هناوإن صوتي ليجلب عليكم الناس من كل فج

بريجون – قد أخبرتنا أن لا كلب هنا على أنها نسيت أن تذكر لنا أن هنا كلبة

منتبارناس – أي إبونين إنك فتاة طائشة فاخلي لنا السبيل ولا تتعرضي فإنما نحن مبعوثان من قبل والدك

إبونين – إني أعرف أنكما أحميتما أنفا لأبي في هذه الفعلة الشنعاء بيداني لا أذهب إلى ما تذهبون وها أنا أقف في وجههكما وأتصدى لكما ولن أبرح هذا المكان أو تصرفان

منتبارناس – قد لزمنا الصبر برهة علنا نقوم معوجك فإن لم نفلح معك فستخلي السبيل خوفا وكرها (يستل سيفه)

إبونين – إذا كنت تستل سيف الظلم والعدوان فها أنا أقرعه بسيف العدل والأمان (تستل سيفها) فتقدم بحسامك الملطخ بدم الأبرياء ترى ضربات حسامي الذي لم تشبه شائبة

بريجون – وكيف استل سيفا لا عهد لي لجعله وما أنا بمقله إلا ليقال عني أني شجاع فهيا يا رفيقي فأني أخشى عليك بادرة الطعان

منتبارناس – أفقدت عقلك يا بريجون أهكذا تفعل بك الهمر فتبا لك من جبال

إبونين أني انتظر بفروغ الصبر أن تتقدم نحوي إن كنت شجاعا

منتبارناس – (يجذبه رفيقه) أنها لابنة أبيها فالوداع يا إبونين (يخرجان)

إبونين – سأتبعهما لا من شرهما (تخرج وراءهما ويظهر ماريوس متأبطا كوزيت)

كوزيت – أجل يا عزيزي ماريوس قد أوشك بي أن يعودوا أخشى أن يرانا على هذا الحال فيسوء بنا المصير

ماريوس – إن أتى أبوك وناداك تهرعين إليه وأنسل أنا راجعا وإن لبث بعيدا فلنداوم على سمرنا نتباث لواعج هيامنا وهلمي يا مهجتي إلى هذه المقاعد نأخذ لنا بعض الراحة (يجلسان)

أرى الناس يرجعون الربيع وإنما ربيعي الذي أرجو نوال وصالك

وإني لكنت قبل اليوم في حالة تتوجع لها القلوب رقة وتسيل لها العيون رأفة فقد قسا قلب أبيك علي فطوى عني ضلوعه وثنى عطف رحمته حتى لقد خلته أغلظ كبدا من الإبل وأيقنت إني لا محالة سأقضي شهيد غرامك .

كوزيت – لعمرك يا عزيزي أن أبي لرفيق القلب عطوف ولئن رأيته جافي الطبع غليظ الكبد فما ذلك إلا من فرط محبته لي وخوفه علي وما يمنعك أيها الحبيب عن زيارتي فإن الوقت فسيح ويسمح لنا باللقاء كلما وجدتني وحدي بانتظارك في هذا البستان حيث لا رقيب إلا وجه السماء ولا صوت إلا خرير المياه وحفيف الأشجار (يدخل جان فالجان ترشده إبونين ويختفيان حيث يسمعا وينظرا العاشقين)

إبونين (بصوت خافت) ألا ترى ألا تسمع ألا تتأكد

جان فالجان واحر قلباه

ماريوس – وإني يا منية نفسي ومجلي ألمي قد خبلني العشق وذهب بفؤادي كل مذهب وهام به في كل واد وكلما شهدتك تحسرينني بفتور أجفانك وإن بعدت عند يستوقد الوجد ضلوعي ويضرم الحب أنفاسي ونحل السهد جسمي حتى لقد تحيرت في أمري

أحبك حبا لو تحببين مثله أصابك من وجد علي جنون

فرحماك يا حياتي رفقا بصريع غرام ونضو سقام

كوزيت – آه ياما احبلي تلك الكليمات الرقيقة التي تسيل من فيك كالدر فإني أشعر بها وحقك كأنها نغمات البلبل الشجية فيرتاح لها قلبي وتتنعم بسماعها أذناي وهكذا فؤادي المغرم بحبك الهائم بذكرك لا يكون أقل حبا من فؤادك ويا ماريوس أن لك أسمى مكان في نفسي وأرفع موضع في قلبي

جان فالجان – ياللعذاب

إبونين – أراك تأكدت وتيقنت (يشير لها جان بإصبعه على فمه علامة الصمت)

ماريوس – إنني في حبك يا حياتي عفيف المئزر طاهر الذيل نازه النفس منصرف عن الفحشاء ولقد خالصتك الود وبدونك لا أحيى يا كوزيت فأنت روحي وحياتي وإني لم أرني قط مرتبطا بوعد ولكنني أجدني ملزما أن أكون مرتبطا معك بوعد فأنت أول مخلوق أعده أن لو افترقنا لا أعيش دقيقة واحدة

فإن عشت لا أبغي سواك وإن أمت فما موت مثلي في هواك عجيب

كوزيت وإليك يا ماريوس إن حبك أول حياتي ومبدأ نشأتي وما حييت بل ما عرفت الدنيا إلا منذ أحببتك

جان فالجان – ويحها لقد أسبلت على ستار النسيان

كوزيت – (متممة) فأنتي لي العالم كله وأنت سعادتي وبدونك لا أطمع في الحياة وما هي الحياة عندي إذا لم تكن أنت مجلى سعادتي ونور أيامي

جان فالجان – لقد جاوزت الحد فابتعدي عني (تخرج إبونين وينادي كوزيت · كوزيت

كوزيت – أي ماريوس هو ذا والدي قد عاد فعليك السلام وإلى الملتقى القريب

ماريوس – (بسرعة ثم يخرج) إلى الملتقى العاجل يا حياتي

جان فالجان – كوزيت يا كوزيت يا ابنتي أني أراني في ساعة ليس أحرج منها وكأني في يم تقذف بي الأمواج المتلاطمة إلى هوة عميقة لا أجد لي وسيلة إلى النجاة منها بل أرى الهلاك مجسما أمامي والمصائب ممثلة لناظري والموت جائلا في خاطري فالهرب الهرب يا كوزيت لا يجدينا سوى الهرب من باريس حالا لأني إذا توانيت ساعة واحدة يقبض علي حيث أزج في أعماق السجون ولن أخرج منه إلا محمولا على الآلة الحدباء وأنت يا كوزيت تركين وحدك في هذا العالم المملوء بالمخاوف فيا ويلاه ويا مصيبتاه لا لا لا ينفعنا سوى الهرب الهرب فالبدار البدار

كوزيت – وإلى أين يا أبتاه ؟

جان فالجان – أأعرف هذا الآن فلربما كان إلى البلجيك أو إلى انكلترا أو إلى سويسرا والقصد الهرب نعم الهرب بعيدا عن فرنسا كلها وارض الله متسع فضاؤها

كوزيت – وإلى كم يمتد هذا الهرب

جان فالجان – إلى الأبد فالعجل العجل (يجذبها معه ويخرجان ثم يدخل ماريوس مذعورا)

ماريوس – ويحك أيها الشيخ الفاني لم تحجبني عن رحمتك وتغض طرف الشفقة عني ولم تكشف لي قناع المصارمة وتبدي صفحة أعراضك ولم تشوه وجوه آمالي وتوقفها على شفا اليأس بعد أن اسفرت عن وجوه الفوز ولم تبعد عني ابنتك وهي قلة رجائي وحديث أحلامي فهل لك في أن تحيي ميت آمالي وإلا قضيت شهيد غرامي آه ياللقسوة وياللظلم فكم وطنت نفسي على الصبر وكم لبثت علي جوى الغرام ولظى الهيام وبيط الجأش فعلام الصبر على أمر أمر من الصبر وحتام الحياة وقد فارقت روحي جسمي فها أنا ضجرت من الحياة وتأففت من العيش (يتغنى بهذه الأبيات)

فلله قلبي ما أقل احتماله إذا ما نأى عنه الحبيب المودع

لقد عشت دهرا ناعم البال خاليا * من الهم لا أشكو ولا أتوجع

أروح ولي في معهد الغي مربع * وأغدو ولي في مسرح اللهو مرتع

فمازلت أبغي الحب حتى وجدته * فلما أردت القرب كان التمنع

ولم يبق لي عن ذلك الحب مهرب * ولم يبق لي في ذلك الحب مطمع

فمهلا ريدا أيها اللائم الذي * يجرعني في لومه ما يجرع

لصحت فلم أسمع وقلت فلم أطع * فما نصح حب لا يطيع ويسمع

فيا حب هذا القول لو كان مجديا * ويا نعم ذاك النصح لو كان ينفع

إبونين – (تدخل وهي باسمة)

ما بال قلبك يا مريوس قد هاما في عشق من لا ترى في وصلها طمعا

إن رفاقك المتطوعين ينتظرون قدومك إليهم في حومة القتال حيث يباع الموت بأبخس ثمن فهل أنت ذاهب ؟

ماريوس – بلى والله ذاهب أطلب الموت الموت (يخرج وإبونين تتبعه)

جان فالجان (يدخل مسرعا) إن كوزيت قد وضعت في حبة قلبها عهاد الهوى فيجب أن يحيي حبيبها لتحيي وأولى لي أن ألحق به لأنجيه (يخرج)

﴿ المنظر الرابع ﴾

(قنوط وأمل)

(يرفع الستار عن طريق عام يوصل إلى ساحة القتال والمتطوعون يسيرون به زرافات ووحدانا وهم متأهبون للقتال وينشدون نشيدهم الحماسي)

أيها الأحرار هيا * نحن أنصار الوطن

موسم الحرب تهيا * يالأحرار الوطن

جنة الأعداء فناء * ولتدم نار الوطن

فيمة الأوطان روح * في رضاها تبتذل

والوغي إما فتوح * أو دفاع أو أجل

والردى إما صبوح ⁕ أو غبوق إن نزل
أيها الأبطال هيا ⁕ نحن أنصار الوطن

(ثم ينتهي بهم المسير إلى حومة الوغى حيث يسمع دوي المدافع وطلقات البادق والمنظر مرعب مخيف للغية ويدخل ماريوس وهو حزين كئيب وقد تقلد سيفا وحمل على كتفه بندقية ثم ينشد)

سلام على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر أنا ومغنما
فهبي رياح الموت نكباء واطفئي سراج حياتي قبل أن يتحطما
ويا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعي فلا سيل دمع تسكبين ولا دما

بالله يا نفس إذا حم قضاء الله عليك بالموت فاحتمليه متحلية بزينة الصبر وقابليه بفضيلة الثبات ، وأنت يا هذا القلب الذي خففت عني الهموم برقة شكواك ويا طرفي الذي غسلت عني الغموم بماء مبكاك ويا فؤادي الذي زحزحت عن عاتقي أثقال الهوى بصبرك على بلواك إلا بالله لا تبطؤا سيرا إلى الممات وأسرعوا إلى سرب كأس فيها راحة مما فات فآه يا كوزيت لقد كذبتني ظنوني ووقفت آمالي على شفا اليأس

فلو كان لي قلبان عشت بواحد وأبقيت قلبا في هواك يعذب
فو الله لا أدري علام هجرتني وأي أمور فيك كوزيت أركب

(يخرج إلى الحرب طلبا للموت ويسمع أصوات القتال المرعبة ثم بعد زمن يدخل لفيف من الجند الأحرار وقائدهم وبينهم جان فالجان وهم معجبون به)

الأحرار – فليعش هذا الشجاع

القائد (لجان فالجان) لقد نزلت بنا وكنا مقصوصي الجناح

موشكين أن نطأ حمأة الخزلان ففرجت عنا كربنا بشجاعة تخشع أمامها العيون وتعنوا لها الجباه فيا هذا الشجاع أني وحقك افتخر بك إعجابا ببسالتك فقد كان لك في ميدان هذا القتال القدم السابقة وعندي أنه لا يلقى نظيرك ولا يدرك قرينك ولسوف نجزل لك العطاء ونكافئك بأحسن الجزاء

جان فالجان لعمرك أن ما فعلته هو ما يوجبه حب الوطن وتحتمه الحرية أما جزاؤك فهو مما يبعث عليه كرم أخلاقك وليس هذا الآن موقف فخار وعندي أننا نعجل بالعودة إلى القتال لأني أفتش على شخص هناك أشخى عليه بادرة الطعان فهل أنتم ذاهبوا عاجلا

القائد أجل سوف نعجل بالذهاب ريثما نقضي على أسيرنا بالموت (يأمر جنديا) علي به ليلقى نصيبه جزاء جنونه (يؤتي به فإذا هو جافير) ما نسيتك أبهذا السجين ، فاستعد لشرب كأس الممات

جان فالجان – جافير

جافير – جان فالجان

القائد – (لأحد الجند) هاك مسدس خذه فاحرق به رأس هذا الأسير

جان فالجان – أي مولاي القائد عفوك لقد وعدتني منذ ساعة أن تجزل لي العطاء وتكافئني بما أشاء

القائد وإني لأنتظرن أفي بما وعدتك به فما تطلب ؟

جان فالجان – مكافأتي يا مولاي هي أن أحرق بيدي رأس هذا الشقي

جافير – هذا هو الحق

القائد – إن ما طلبت ليسير في جنب ما فعلت فافعل ما تشاء ولتعلم أنك لم تنل جزاءك ولم أف بوعدي ثم لتذهب بهذا الشقي في ناحية بعيدا عن جندنا ولا تدع جثته الخبيثة تقع بين جثث الأحرار الطاهرة فاحرق رأسه والحق بنا فإنا في احتياج إلى بسالتك (إلى جنده أهبا إلى موقف القتال أيها الأحرار) (يخرجون ويضع جان المسدس في حزامه ويتقلد سيفه)

جافير – أنك لتستصوب قتلي بسيفك (يتقدم جان نحوه ويقطع وثاقة بسيفه ثم يضعه بعد ذلك في غمده) ما هذا ماذا فعلت وما مرادك ؟

جان فالجان جافير يا جافير اذهب فأنت حر

جافير – حر لا لا أنك تؤلمني بهذا الكلام فأجهز علي

جان فالجان – يا جافير أعلم أنك حر

جافير – حر أنا كيف أنسيت أني ما خلقت إلا لتعذيب روحك أجهلت أن منية نفسي هي القبض عليك يوما وهل تزعم يا جان أنك لو أبقيت علي آخذ إخذك واقل غرب سخطي وارد عرام شراستي فلا والله لن تجدني إلت مستوقدا غضي مضرما غيظي آملا أن أكون لك يوما من المهلكين

جان فالجان – يا جافير إني عنك وعن سابق آثامك من العافين

جافير لأنك بعفوك عني تبيض وجه معروفك فأنت عظيم بيد أني قد بيعد المعروف عني بعد الأرض من السماء فأنا لئيم وابن لئيم ولئن كنت تعفو عني اليوم فلن أصفح عنك في الغد فأنا جافير لا أعرف معنى للصفح ولا أطلب صفحا ولا أفوت انتقاما حتى من نفسي بل وما هي نفسي وهل اعتبرها أنا إني لئيم فاسمع إلى ولا تستبقني

جان فالجان إن كنت ترتضي الموت فإني استرضى لك الحياة

جافير – ولم طلبت أن تحرق بيدك رأس

جان فالجان – لأكون قادرا على نجاتك من مخالب الموت فرفقا يا جافير وكن بنفسك من الراحمين

جافير – كلا ثم كلا فلن تكون عني عاليا وإني لا أنسى إهانتك لي يا جان يوم فانتين فلا تصفح واقتل فإن في صفحك عني ازدياد في بغضي لك

جان فالجان – يا جافير ينبغي أن تحيي

جافيربل يجب أن أموت (يهجم عليه وينزع المسدس من حزامه ويطلق رصاصه على نفسه فيموت) أنا أقتل نفسي بنفسي

جان فالجان – لهفي عليك ويحك مسكين يا جافير (يقف متأملا فيه فترة من الزمن فيسمع ماريوس يتغنى في ساحة القتال بهذه الأبيات)

رمتني يد الأيام عن قوس محنة بسهمين منزوع الفؤاد عن الصدر
فلا ملك الموت المريح يريحني ولا أنا ذو عيش ولا أنا ذو صبر
عليك سلام الله يا غاية المنى وقاتلتي حتى القيامة والحشر

جان فالجان – هذا هو ماريوس وإنه ليطلب الموت فيا ويلاه يجب أن ألحق به (يخرج مسرعا وتسمع الأصوات المرعبة ثم يدخل جملة من الجندة فيحملون جثة جافير ويخرجون بها وبعد زمن يظهر ماريوس في حالة نزاع ويرتمي على الأرض)

ماريوس – (يتقطع) آه يا رب لقد لقيت الموت بلى قد وصل الرصاص إلى قلبي وسوف أموت فألحقني بأوليائك الصالحين وارحمني برحمتك الواسعة إنك أنت أرحم الراحمين إني اشعر بضيق شديد

وألم عظيم وعلى هذا لم أذق كاس مماتي وأطو بساط حياتي واعجبا إني لم أمت وهذا الرصاص الذي صادف قلبي فآه يا للعذاب أين أطلب الموت وأين ألقاه يا رباه إني أطلب الموت الموت

جان فالجان – (يدخل إليه مسرعا) وأنا أريد لك الحياة الحياة

ماريوس – آه أبوها القاسي أهذا هو أنت بالله رحمتك يا هذا الشيخ رفقا بصريع غرام وقتيل هيام

جان فالجان – (يتأمل في جروحه) مهلا رويدك يا مارويس هو عليك فسوف تحيي فإن جراك لا يخشى عليك منها ولا تسبب الموت فرويدك ريثما اهتدي إلى مكان يعصمك وأضمد لك فيه جراحك

ماريو إن كنت أحبي لكوزيت فها أنا لا أموت فهي روحي وحياتي ومماتي في يدها

جان فالجان – وإنها لكذلك وهي في انتظارك

ماريوس – إذا أعطني يدك وساعدني إلى أن أصل إلى هذا الكوخ فإنه ملتمسنا في حاجتنا (يساعده على إيصاله إلى الكوخ ثم يدخل الأحرار وقد تم لهم الانتصار فينشدون بفرح)

الأحرار – أيها الأحرار هيا ⁂ نحن أنصار الطون

موسم الحرب تقضي ⁂ يا لأنصار الوطن

قوة الأعداء هباء ⁂ وليدن نصر الوطن

كلنا فيه فداء ⁂ يا لأحرار الوطن

(يخرج ماريوس من الكوخ وهو يستعين بجان فالجان على السير ويقف وسط الأحرار وينشد)

مايوس – واليوم نلت المنى ⁂ واليوم يوم السرور

بباهي النصر عمنا * نلناه يوم الحبو

إنما العز محيا * عيد تذكار الوطن

الأحرار– أيها الأبطال هيا * نحن أنصار الوطن

موسم الحرب نقضي * يالأنصار الوطن

قوة الأعداء هباء * ويدم نصر الوطن

كلنا فيه فداء * يالأحرار الوطن

ماريوس – واليوم نلت المنى * واليوم يوم السرور

الأحرار – بباهي نصر عمنا * نلناه يوم الحبور

ماريوس – إنما العز محيا * عيد تذكار الوطن

الأحرار – كلنا فيه فداء * يالأحرار الوطن

(الخاتمة)

(كل من عليها فان)

(يرفع الستار عن حجرة غاية في بساطة المفروش على اليسار مرآة عظيمة وعل حمالتها شمعدانا الراهب وفي آخرها باباب وفي الوسط منضدة عليها كل ما يحتاج إليه للكتابة وبجانبها مقعد كبير ويدخل الطبيب تتبعه الخادمة)

الخادمة ثم ما العمل يا حضرة الطبيب ؟

الطبيب قد استحكم اليأس وخاب الأمل من مريضك

الخادمة يا رحمن والآن ما عساك تشير به علي لأعمله

الطبيب إني على يقين من أن مرضه لم يحدث إلا على أثر مفارقته شخصا يوده ويعطف عليه فخبريني أو لم ينا عنه إنسان عزيز تنازعه نفسه إليه

الخادمة بلى لقد نأت عنه قتاة هي قرة عينه ومحل أنسه كان يعزها ويودها كثيرا ويعتبرها حياته وقد عقد قرانها على سيد فتى كانت قد خالصته الود وأشربت محبته وتقاسما الصفاء فأدخلها في هذا المنزل منذ شهور ثلاث وفي يوم زفافها عليه سافرت هي وقرينها وغادرته وقي قلبه

من لوعة الشوق نار تتقد وإنه ليعاني ما يعاني من الهم والغم اللذين أدبا به إلى ما تشاهده فيه من الضعف والآلام حتى أنه إذا أمسى لا يهجع وإذا أصبح لا يأكل ولا يشرب

الطبيب – أجل قد يلازمه الغم مادام ملتهب الصدر مضطرم الضلوع على ابنته

الخادمة – والعجيب يا سيدي الطبيب أنه يعرف إلى أين ذهبت هي وقرينها بيد أنه لا يصرح لأحد بذلك وهذا لعمري مهبط لكل عجيبة فإن غيابها ...

الطبيب – (يقاطعها) يعجل مسيره إلى اللحد

الخادمة – أيموت لغيابها يا رباه

الطبيب – أجل قد يموت (يجلس ويكتب)

الخادمة – واحسرتاه أيموت سيدي فياللتعاسة وياللشقاء أيموت مجلى سعادة هذا العالم ومنبع السرور فيه لكل إنسان فيالهفي عليك وليت شعري لم كنت جوادا محسنا ولم كنت عطوفا حنونا ولم كنت محبوبا من كل إنسان ومحترما في كل مكان فيا بئس ما يكون بعدك الزمان

الطبيب – (يعطيها الورقة) دونك هذه الورقة وأنا غاد في شأني

الخادمة – ومتى تعود

الطبيب – لات حين عودة وقد قضي الأمر (يخرج)

الخادمة – يا ويلاه قضي الأمر لا لا (يدخل جان فالجان في حالة ضعف غير قادر على المسير وقد خطه الشيب وبلغ أرذل العمر) سيدي علام خرجت من مخدعك ألم تك فيه في راحة أم تراني قصرت في خدمتك .

جان فالجان – يدك ساعديني أرجو منك أن تقوديني إلى هذا المقعد ففي النفس حاجة وأود أن أسطرها يدك ساعديني على السير (تأخذ بيده وتجلسه على المقعد) أشكرك شكرا جزيلا يا خادمتي الأمينة ثم الآن يمكنك أن تستريحي فقد لا أراني في احتياج إلى شيء ما فاذهبي واستريحي (تخرج الخادمة ويمسك القلم ليكتب) (عزيزتي كوزيت أكتب إليك) آه ما أضعفني اليوم فإن يدي ترتعش ارتعاشا وقلبي يخفق خفقانا فأنا خائر القوى وقد ترادفت علي الأسقام وتواترت الأواجع حتى لم أقدر على رفع اليراع فآه أولى لي أن أموت لا لا بل أن أنهي موتى فأني مت منذ نأت عني كوزيت آه يا كوزيت أنك حياتي وقد مت بعد فراقك لي فأنا ميت الآن وإن كنت أشعر وأتكلم ولسوف أنهي موتي ويا كوزيت لقد أتممت واجبي الإنساني فانجيت حياة هذا الشاب وزوجته بك وعرفته من أنا بلى أعلمته أني أنا جان فالجان الشقي العاتي ولم ارتضي يا كوزيت أن أجمع بين شخصين طاهرين كريمين وبين مجرم قديم فأبعدتني عنكما وأبعدتكما عني وأني لعمر الحق أراني قد أحسنت صنعا فهذا هو واجب الإنسانية والأمانة والعدالة ولقد أنجزته كما أمرني ضميري بيد أني لم انتبه لقلبي ولم أشعر به ساعتئذ .. فإنه يخالف ضميري وأنه ليتألم أيما ألم لبعد كوزيت عني وإن يكن ضميري يحدثني بأن سوف أنهي موتي وأنا في أتم راحة إلا أن قلبي يمثل لي الموت في أشقى الحالات وأتعسها فإني لو كنت عائشا وحدي لما وجد الألم سبيلا إلي فآه سوف أموت ولا أراك يا كوزيت إن هذا لعظيم فآه حنانيك أيها الدهر وأجمع بيني وبينها ولو دقيقة واحدة أسمع فيها صوتها العذب وأقبل يدها الكريمة وأشاهد وجهها المشرق فآه ليتني

أراها ولم لا وهل يجلب هذا شقاء لأحد بني الإنسان كلا وحقك يا رب فامنن علي بزورتها واسمعني كلامها إنك أنت الرحمن الرحيم آه يا حسرتاه قضي الأمر وسوف أموت ولن أراها (يطرق الباب وتدخل كوزيت مع ماريوس) أهلا بالطارق .

كوززيت – (تسرع إلى جان وتقبله) ابتاه يا ابتاه آه يا ابتاه

جان فالجان – (يقف حائرا) كوزيت أنت أمامي كلا أني لا أصدق أجل لا أصدق إنما أنا أحلم فياللأسف (يجلساه على المقعد)

ماريوس – إنما هي اليقظة يا ابتاه بل هي السعادة بمرآك

جان فالجان – هذا هو أنت يا ماريوس أنك أمامي أيضا أنت تكلمني إذا أنا في يقظة لا في منام فسامحني بحقك يا ولدي سامحني وأسبل ستار الصفح علي فعالي

ماريوس– يا للعجب . أسامعة أنت يا كوزيت أنه يطلب مني السماح أمصغية أنت أنه يساءلني أنا فآه يا أبتاه لقد أتيح لي عرفان كل شيء أجل عرفت ما انطويت عليه من الشرف والجود والحنان والإشفاق ولا تسلني بحقك أن أسرد لك ذلك فإني إن فعلت وأسهبت في المقال فعلم الله ما أنا آت بذرة من إحسانك ومعروفك بيد أن فؤادي وضميري يتمثلان كل شيء ولستني وبياني يعجزان عن التعبير به وناهيك يا كوزيت أنه هو منجي حياتي من مخالب الموت يوم كنت أعالج سكراته واشتريه بأبخس الأثمان من سوقه الرائج بلى يا كوزيت يوم كان الموت في قلبي وفي فؤادي ونزعه مني بكلمة واحدة وجدت فيها الحياة فحياتي ومماتي في يديك وأنت تطلب مني السماح ويا ليت شعري أني ليتحتم علي أن أسألك إياه

جان فالجان أي ماريوس كفى يا ولدي ثم كفى فلقد أسهبت في

مدحي كأنني بعض من يعرف الإحسان فأنت يا ماريوس في عيني تمثال الإحسان ولك السعادة لأنك أطفيت لهيب الشوق المتأججة في فؤادي فمننت علي بمرآي كوزيت حياتي

كوزيت – آه ما أعطف قلبك وأحسن ضلوعك يا أبتاه

جان فالجان – بارك الله فيك يا ابنتي (إلي ماريوس) أتسمح لي يا ولدي العزيز بأن أقبل يد قرينتك

ماريوس – آه ما أرق شمائلك وكم أنت حنون وعطوف

كوزيت – أه يا أبي أني كنت أشتقاك مع كل صباح طالع ونجم طارق وضاءي شارق بشوق ـو فرق يا أبي على القلوب الخالية لاشتغلت ولو قسم على الأكباد الباردة لاشتعلت ولولا أن شخصك لي مائل وبين ضلوعي نازل لكدت أقضي نحبي أنفا على أن الذي اختار لنا ذلك وارتضاه جدد ما تمزق وجمع ما تفرق وأعاد ساعات السرور والزمان الهنى الذي تقضي فالحمد له ألف حمد

جان فالجان – أما أنا يا كوزيت فقد ذقت بعد فراقك حتفي ولو أنني كنت أغدو وأروح فما ذلك إلا من حلاوة الروح ولا غرو فقد يطير الطائر وهو مذبوح

كوزيت – ويا والدي إنما قد حسبناك تغيب عن هذا المنزل فلم نشأ أن نطأ أديمه وما علمنا أنك مقيم فيه إلا منذ أيام قلائل وكان مصيبتنا عظيمة حينما أخبرنا أنك مريض تعاني أوجعاك وأوصابك ويا حسرتاه كم تألمت وتأوهت وناديت كوزيت وكوزيت غارقة في بحار التعيم الذي خصصتها لها انظر يا ماريوس إلى أبي كيف أصبح منقوف الوجه ذابلا مهزولا

ماريوس – بيد أننا وجدناه فعمتنا السعادة وأولى لنا أن نعود جميعا إلى قصرنا بل وأظن أنك لا تلبث غدا أهنا يا أبتاه

جان فالجان – غدا يا ماريوس أي والله صدقت يا ولدي فلن أكون هنا غدا بيد أني لا أوجد معكما

ماريوس– ما هذا العذاب لا لا إنك لا تفارقنا أبد الدهر

جان فالجان – أمتأكد أنت يا ولدي

كوزيت – ولم لا يتأكد فقل لي بحقك يا أبت أتشعر بضيق أو بألم

جان فالجان– بأبي يا كوزيت لا أشعر بألم مادمت بصحبتك لكن

كوزيت – لكن ماذا

جان فالجان – كوزيت لا تحزني فأني سأموت الآن

كوزيت وماريوس– (معا) تموت

كوزيت – ستعيش يا أبي ولن تموت وأني أحب لك الحياة

جان فالجان – بلى أقبلها لأجلك فادفعي الموت عني إن استطعت إلى ذلك سبيلا وأنا أمتثل لك وأعيش ويا كوزيت أنت حياتي لقد كنت مشرفا على الموت منذ ساعة وأني لأردد أنفاسي الأخيرة أنك دخلت عي فوقف الموت بغتة وتحول فجأة وكأني يا كوزيت يأعيش وأحيي حياة جديدة

ماريوس – ستعمر جمعنا يا أبي زمنا أسال الله أن يكون مديدا وإن كنت تألمت كثيرا فلن تتألم بعد وستحيي حياة سعيدة

كوزيت – ويا ليت شعري يا أبتاه فهل سمعنا قبل اليوم أن رجلا صالحا محسنا يموت ويقضي عليه القدر بمغادرة هذا العالم فلا غرو أن

الفقر يعم من كان يحسن إليهم ويصلح حالهم وأنت يا أبتاه مجلي سعادة هذا العالم ولا أصدق أنك تموت أبد الدهر

جان فالجان لا بل قد قرب الأجل وكل من عليها فان غير أني مادمت اسمع صوتك الرقيق وأشعر بوجودك فسأموت موتا سعيدتا (تركع كوزيت وتبكي) آه يا كوزيت لا تقطعني نياط قبي وفتتي كبدي وبالله كفكفي دمعك وغيضي عبراتك ودعيني أموت سعيدا متى علمت أنك سعيدة (يضع يديه على كوزيت وماريوس) ولداتي وحشاشة كبدي قد ضعف بصري فلم أعد قادرا على رؤيتكما فيا كوزيت يا عيززيت أنيري هذين الشمعدانين (تنيرهما كوزيت) لأنهما سيتحولان في بصري نورا سماويا مقدسا ويا كوزيت هذا إن الشمعدانان هما منبع سعادتي وأصل غناي وأضعهما بين يديك لترتئيهما منىي ولتذكرينني بهما وأنهما الفضة الخالصة بيداني اعتبرهما من ذهب بل من أعز الحجارة الكريمة وأرفعها قيمة فيارب عاني إن مت والتفيت بالعابد الكريم الذي وهنيهما يوم وهني نفسي ينظر إلي بعين ملؤها الرأفة ويقول لي بلسان ينبعث منه الصدق أني استجففتهما وعملت بما به أمرني رباه هو ذا العابد مائل أمامي هو ذا منحي هو ذا مرشدي وسبب سعادتي إني أراه على زمم مني ويرفع يده مسلما علي ويبتسم في وجهي ثم أنه يفتح لي ذراعيه ويدعوني إليه فها أنا ذا خذني معك (يرتمي على المقعد مائتا ويركع أمامه ولداه في أحر بكاء) .